زدني علماً

اندريه كريسون

باسكال

حياته - فلسفته - منتخبات

ترجمة
نهاد رضا

منشورات عويدات
بيروت . باريس

باسكال

حياته - فلسفته - منتخبات

اندريه كريسون

باسكال

حياته - فلسفته - منتخبات

ترجمة

نهاد رضا

مجاز في الادب والفلسفة من جامعة باريس
دبلوم في العلوم السياسية

منشورات عويدات
بيروت - باريس

جميع حقوق الطبعة العربيـــة في العالم محفوظة لدار
منشورات عويدات
بيروت - باريس
بموجب اتفاق خاص مع المطبوعات الجامعية الفرنسية
Presses Universitaires de France

الطبعة الثالثة ١٩٨٢

الباب الأول

حياته

« وُلد أخي في كليرمونت في التاسع عشر من شهر حزيران عام ١٦٢٨ . وكان والدي يُدعى إتيان باسكال وكان يشغل منصب رئيس « ديوان المحاسبة » . أما أمي فكانت تسمى أنطوانيت بيغون . وما أن أصبح أخي في سن تسمح بمحادثته حتى ظهرت عليه بوادر النجابة الفكرية. وقد تجلى ذلك في سرعة خاطره وردوده التي كان يقوم بها في الوقت المناسب ، ولا سيا في الاسئلة التي كان يوجهها مستفسراً عن ماهية الأشياء. فكانت البداية مبشرة بالأمل الحسن ، ولم تجد قط ما يكذبها مع مر الزمن. فكلما تقدمت سنه قوي تفكيره حتى ليمكن القول ان مستواه الفكري كان دائماً أعلى من عمره الحقيقي » .

بهذه الكلمات استهلت شقيقته الكبرى جيلبرت « حياة باسكال » . وقد كتبت هذه الترجمة biographie بُعيد وفاة أخيها ، من أجل طبعة كتابه « خواطر »

التي كانت جماعة « بور رويال » تعتبر هذه الترجمة مرشداً ثميناً لمن يود معرفة بليز باسكال .

أصيب بليز وهو ابن عام بمرض مجهول استمر اثني عشر شهراً تقريباً . فكان يتعرض للتشنجات ويحس بكره غامض للماء ، ولا يستطيع تحمل وجود والده ولا أمه . وبذلت الأخيرة قصارى جهدها في العناية به ، وفي هذه الفترة العصيبة انجبت طفلة ، جاكلين ، ارتبطت حياتها ارتباطاً وثيقاً بحياة أخيها ثم توفيت الأم واهنة مكدودة عام ١٦٢٦ وكان عمر ابنها آنذاك ثلاث سنوات . لئن فقد بليز حنان الأمومة فأنه لم يحرم رقة الأنوثة . فقد ترعرع بين شقيقتيه وفي حمى شخص موثوق حاول ان يحتل مقام الأم التي فارقت الحياة في وقت مبكر .

تعلق الأب ، إتيان باسكال ، بأولاده بعد وفاة زوجته اكثر من ذي قبل ، وصمم على ان يقف نفسه للسهر على تربيتهم : إلا أن مهمته كرئيس لديوان المساعدة في مونفيران كانت تستأثر بالقسط الأعظم من وقته ؛ لذلك باع منصبه عام ١٦٣٠ وانتقل في العام التالي الى باريس ليقطن فيها . وكان وضعه المالي يسمح له بتنظيم

حياته وفق مشيئته .

أقامت الأسرة في البدء في شارع« لاتيسيرانديري » ثم انتقلت عام ١٦٣٦ إلى شارع « بريزميش » في سان ميري . وانصرف « إتيان » انصرافاً تاماً إلى المهمة التي أخذها على عاتقه ، ولا سيما السهر على تربية ابنه ، بعد ما تبينت له عبقريته الناشئة . « كانت قاعدته الأساسية ان يجعل ولده فوق مستوى المواد . لذلك لم يرغب قط ان يشرع بتدريسه اللغة اللاتينية قبل الثانية عشرة ، بأمل ان يتعلمها بمزيد من اليسر »؛ولم يكن يرغب في تدريسه الرياضيات قبل الخامسة عشرة او السادسة عشرة. وبناء على مخططه التربوي المدروس شرع باعطاء ولده نظرات اجمالية ومعلومات عامة حول بعض المواضيع الكبرى . « فكان يبين له بوجه عام ما هي اللغات ، ويُبين له انها تخضع لقواعد نحوية ، وان لهذه القواعد استثناءات » . وكان في الوقت نفسه يلفت انتباهه الى ظواهر الطبيعة وما فيها من أشياء مدهشة كالبارود وغيره .

أما باسكال فكان يريد ان يعرف علة كل شيء . ولم يكن ليكتفي بالردود المقتضبة والاجوبة المتهربة . ولم

يكن طرح الأسئلة يكفي حبه للمعرفة بل كان يبحث بنفسه عن الحلول . صحيح ان والده قرر ان لا يحدثه عن الرياضيات قبل الخامسة عشرة، بيد ان بليز كان يسأل والده عن هذه المواضيع فكان الأخير يرفض الأجابة . وذات يوم رأى ابنه منهمكاً في البرهنة على القضية رقم ٣٢ من كتاب اقليدس الأول ، وهي القائلة بأن مجموع زوايا المثلث مساو لزاويتين قائمتين .

كيف توصل بليز الى طرح هذه المسألة ؟ ها هو ذا الطفل النابغ يقول لوالده انه وجد آنفاً كيت وكيت ، فأعجب إتيان بعظمة هذه العبقرية المبكرة وروى الحادث لصديقه ليبايور . وقر قرارهما على ان يعطياه « مبادىء اقليدس » ليطالعها في ساعات الفراغ .

ولم يكن إتيان يهمل شؤون ابنتيه ، فقد كان هناك ما يدعوه الى الاعتزاز بهما، ولا سيما ابنته جاكلين . فهي لم تكن ظريفة كيسة فاتنة فحسب ، بل كانت أيضاً تتمتع بذهن حي وفكر أصيل ، كما كانت تقرض الشعر بسهولة ويسر . وقد ألفت في الحادية عشرة ملهاة من خمسة فصول طافت صالونات باريس . وتوطدت بين بليز وجاكلين مشاعر الألفة ، في حين كانت الأخت

الكبرى مرغريت تنهض بدور الأم .

صحيح ان « إتيان » كان يقف وقته لرعاية شؤون أولاده ، بيد أنه لم يكن يرغب في الانطـواء والابتعاد عن المجتمع . كم مرةٍ رأى شارع بريزميش الاجتماعات تعقد لبحث المسائل المدرجة في جدول الأعمال : خاصة المسائل العلمية ولا سيما الرياضيات. وكان من جملة الرواد روبرفال ، الأب مرسين ، فيرما ، ديزارغ ، وكلهم من مشاهير الرياضيين .

وقد ُقبل بليز ، على حداثة سنه ، في هذه الحلقات العلمية ! « كان على قدر المقام ، وفي أغلب الأحيان كان في عداد الذين يأتون بالجديد المبتكر » . ولما كان يجد في الهندسة الحقيقة المنشودة ، فقد كان يقضي ساعـات الفراغ منصرفاً الى هذا العلم . وفي السادسة عشرة ألف كتاباً اسمـــه « بحث في المخروطات » أدهش الرياضيين الذين كانوا يجتمعون عند والده .

●

لما باع « إتيان » منصبه في كليرمون وظف أمواله في وثائق دخل على القصر البلدي في باريس . إلا ان

الحالة المالية كانت في آذار ١٦٣٨ في وضع سيء مما أجبر على إلغاء ربع وثائق الدخل . حينئذ ذهب عـــدد من أصحاب وثائق الدخـل الى حامـــل الأختام سيغييه واحتجوا لديه احتجاجاً شديداً ، فزج ريشليو ثلاثـة من المحرضين في سجن الباستيل ؛ أمـا الآخرون فرأوا ان الحيطة تتطلب منهم الاختفاء ، وكان من جملتهـــم إتيان الذي سار بعيداً في المحاولة . وفي أيلول من العام نفسه أصيبت جاكلين بالجدري ، فلم يتردد والدهـا في العودة ولازمها حتى زال عنهـا شبح الخطر . وما أبلت من مرضها حتى ذهب ليلتجىء في الأوفيرني مخلفاً أولاده في باريس . وفي العام التالي اتيحت لجاكلين فرصة تمثيل ملهاة أمام الكاردينال ريشليو ، فأجادت في تمثيلهـــا لدرجة انها نالت الصفح عن والدها . وبعد فترة قصيرة استقبـله ريشليو في رواي وعينه مندوباً للملـــك في روان .

ذهبت كل الأسرة إذن الى النورماندي وبصحبتهـا السـيد بيرييه الذي تزوج جيلبرت في العام التالي . وكان عمرها آنذاك واحداً وعشرين عاماً. ونظراً الى منصب إتيان الرفيع أصبح صالونه من أهم الصالونات وغالباً ما

كان يحضر إليه كورناي الذي أظهر اهتماماً كبيراً بمحاولات جاكلين الشعرية . أما بليز فكان يتابع دراسته ويعمل في نفس الوقت مع والده . وتجنباً للحسابات الطويلة عنت له فكرة صنع آلة حاسبة « تجري بها جميع الحسابات بغير ريشة ، ليس هذا فحسب بل تجري أيضاً دون ان يلم الشخص بأي قاعدة حسابية وتكون النتائج معصومة من الخطأ » .

إعتباراً من هاتيك الآونة ساءت صحة بليز . هل كان ذلك بسبب الجهود التي بُذلت في تصميم هذه الآلة كما ذكرت أخته ، أم بسبب ضعف وراثي ؟ مهما يكن من أمر فان بليز لم يقض يوماً واحداً دون ألم منذ الثامنة عشرة . ولكن « ما ان يحظى بلحظة راحة حتى كان فكره ينصرف للبحث عن شيء جديد » .

وفي كانون الثاني ١٦٤٦ سقط اتيان والخلع فخذه . فجاءه الأخوان ديشان للعناية به . وجرت بين الطرفين خلال فترة النقاهة محادثات طويلة . ونصحه الأخوان بمطالعة بعض الكتب ولاسيما «مقالة الراهب جانسينيوس في الاصلاح الداخلي » . وقرأ بليز أيضاً هذا الكتاب فتأثر به تأثراً شديداً . كانت تعاليم جانسينيوس تتفق

ومزاجه وتتجاوب وأهواءه: فقد كان من أولئك الذين يفتتنون بالواجب . وإذ أدرك استحالة التوزع بين الله والعالم،صمم على أن يقف حياته لله وان يعمل لمرضاته.

●

بعد مـــا اتخذ بليز هذا القرار سارع الى حث اهله على الدخول معه في هـذه الطريق ، طريق الخــلاص الحقيقية . وكانت اخته جـا كلين « اول من قرر التخلي عن جميع الامتيازات لتقف نفسها كلياً للباري تعالى » . وتبعها الوالد الذي لم يتردد في الاذعان لتعاليم ابنه ، ثم مرغريت بيرييه وزوجها اللذان جاءا من باريس واقتنعا بسهولة . ووضعت الاسرة نفسهـا تحت اشراف غيبير خوري أبرشية اقليم كو . وعن طريقه احتكت الاسرة فيما بعد بدير بوررويال . الا ان ازدياد تقوى الاسرة ، وتحمس باسكال للافكار الرسولية لم يمنعـا الأخير من متابعة ابحاثه العلمية .

ففي تشرين الاول ١٦٤٦ جـاء السيد بيتي ليرى إتيان،وتحدث عن التجربة التي اجريت في ايطاليا حول الفراغ ؛ كان المبدأ السائد يقول بكره الطبيعة للفراغ .

وبمساعدة بيتي اعاد باسكال التجربة واخترع تجـــارب اخرى . وفي العـــام التالي نشر تقريراً عن اعماله تحت عنوان : « تجارب جديدة بخصوص الفراغ » .

إلا ان مرضـــه اشتد ، واصيب القسم السفلي من جسمه بالشلل . ولم يعد يسير الا متكئاً على عكازتين . واكبر الظن انه الف آنذاك « الابتهال الى المولى بحسن الاستفادة من الاسقام » . وقد ساعدت العنايـة الحسنة على التخفيف من آلامه . وبناء على طلب الطبيب، ذهب الى باريس مع اخته جاكلين للتداوي . وكان وقته موزعاً بين التداوي والتقوى والابحاث العلمية والمحـادثات مع الاصدقاء . واستقبل ديكارت[1] مرتين . وقد زعم الاخير فيما بعد انه هو الذي اوحى لباسكال بتجاربه في توازن السوائل . وعمل باسكال على ادخـال بعض التحسينات على آلة الحاسبة، واستمر في دراساته عن الفراغ ، وقام بتجارب مقنعة ، احداهـــا في برج سان جاك بباريس

(١) اقرأ مدخل الى فلسفة ديكارت للدكتور كمال الحاج - تأملات ميتافيزيقية لرنيه ديكارت (النص العربي مع النص الفرنسي) سلسلة : المكتبة الفلسفية رقم ٥ و ٦ «منشورات عويدات»

والاخرى في بوي دي دوم بفضل عناية صهره بيريه . اما كتابه « بحث في الفراغ » فلم يُنشر ولم يُعثر الا على بعض اقسامه . ولما انتقده احد اليسوعيين ، الأب نويل ، اجابه بقلم فيه نفاثة تنبىء عن كتابه المقبل : « الرسائل الريفية » .

منذ وصوله الى باريس ، حضر باسكال في انتظام كبير مع اخته جاكلين خطب السيد سانغلان واعظ بور رويال . ورأت جاكلين انه يتحدث عن الحياة المسيحية « بحديث يتفق مع الفكرة التي كونتها في نفسها » فارادت ان تدخل الى بور رويال . ولقي قرارها تأييداً من اخيها الذي تكفل باطلاع والدها . الا ان إتيان رفض اعطاء الموافقة ، وكي يبدل مجرى افكار اولاده اصطحبهم الى الأوفيرني عند آل بيريه . وازدادت جاكلين تقشفاً واعتكافاً بينما ازداد اخوها ميلاً الى حياة اللهو والتسلية بتشجيع من والده ومن الاطباء . فاشترك في اجتماعات علمية عديدة وانغمس في حياة المجتمع .

استمرت الاقامة في كليرمون سبعة عشر شهراً .

وفي ايلول ١٦٥٠ عادت الاسرة كلها الى باريس لتقيم في شارع تورين . وهنا استمر باسكال في حياته الاجتماعية التي عاشها في كليرمون ، وعقد الصلة مع عدد من الاشخاص « المتشربين بالروح الاجتماعية » : الدوق دي روانيز الذي تعلق اشد التعلق بباسكال ، ودي بارو الذي كان يميل الى التقى حالما تتوعك صحته قليلاً ، ومدام ديغيون ابنة اخ ريشليو .

وفي ٢٤ ايلول ١٦٥١ توفي والده . وكانت نهايته مسيحية لدرجة ان خوري الابرشية أشاد به على المنبر . وتأثر باسكال تأثراً شديداً وتلمس العزاء في الإيمان . وهاله ما ينتظره من شعور بالوحدة وود لو أبقى اخته جاكلين قربه ، على الاقل خلال فترة من الزمن . لكن حالما وقّع على تقسيم الاموال قررت جاكلين السير حسب استمدادها . وبعد خلوة دامت بضعة اشهر لبست ثياب الرهبنة عام ١٦٥٢ . وما انتهت الفترة التمهيدية حتى دخلت نهائياً في سلك الرهبنة في ٥ حزيران ١٦٥٣ . ويبدو ان بعض القضايا المالية المتعلقة بالإرث خلقت بعض البلبلة في علاقة الاخ بأخته ، إلا ان باسكال تصرف في النهاية تصرفاً بدد الغيوم ، وأمن لأخته

بائنة مناسبة لدخول بور رويال .

وعلى حين وقفت الاخت نفسها كلياً لله، أعرض بليز عن امور الدين وانصرف الى أمور الدنيا . ولئن وجد في مزاجه وتربيته الدينية عاصماً عن بعض الميول ، فقد انساق مع حبه للعلم وعاد الى الصداقات المجتمعيـــة . ولعله يجب ان نبحث عن سبب هـــذا التطور في الفراغ الذي خلقه ذهاب جاكلين ، وربما ايضاً في تحسن حالته الجسمانية بصورة موقتة. وأغلب الظن انه كتب آنذاك « مقالة في اهواء القلب » . وقـــد عثر عليها فكتور كوزان في المكتبة الملكية ولكن يُشك في صحتها .

هكذا عاد نشاطه العلمي الى الظهور عام ١٦٥٤ . فكتب بحثيه القصيرين : « في توازن السوائل » و « في ثقالة كتلة الهواء » . وهذان البحثان مستخلصان من كتـــابه « بحث في الفراغ » الذي لم يصل إلى ايدينا . ونشر في نفس الوقت كتابيه :«بحث في المثلث الحسابي» و « بحث في ترتيبات الاعداد » . وجرت بينه وبين فيرما مراسلة نشيطة بخصوص نظرية الإحتمالات .

اما أخته جاكلين فكانت « تأسف لرؤية الشخص الذي بصّرهابعدمية الحياة الدنياينغمس في نعيمها الباطل» .

وغالباً ما كانت تحثه على الإعراض عنها الا ان الساعة لم تكن بعد قد أزفت ؛ فكان باسكال يستمع اليها ومع ذلك « كان لا يكف عن المضي في مشاريعه » . بيد ان زياراته العديدة لأخته ، ومحادثاته الطويلة معها ، وربما ازدياد حالته الصحية سوءاً ، كل هذه العوامل جعلته ينظر الى الامور نظرة جديدة تماماً . وكما يقول بوترو : « أحس بعظم التفاوت بين وضعه ومصيره » . فأكثر من محادثاته مع اخته « وأصبحت هذه المحادثات متكررة طويلة ، فيما تقول اخته ، بحيث صار يُخيل إلي انها عملي الوحيد » .

●

وفي ٢٣ تشرين الثاني ١٦٥٤ ، غداة سماعه لوعظ السيد سانغلان ، اومض في نفسه ضوء عجيب ونور غريب . حتى لكأنه ضياء علوي شاع في ارجاء نفسه مدة ساعتين . ورأى الحضرة الربانية وأحس بجلالتها السنية : وكي يحتفظ بما أوحي اليه من افكار سارع الى تسجيلها على قطعة من الرق وُجدت على ثيابه بعد وفاته.
اصطفى باسكال مرشداً. ونصحه سانغلان بالاختلاء في دير بور رويال دي شان . وعهد به ، خلال هذه

الخلوة ، الى السيد دي ســـاسي . ودار بينهما الحديث ذات يوم حول إبيكتيت و مونتاني[1].وسجل فونتين ، مساعد دي ساسي ، ما قيل بحسب امـــلاء باسكال في اغلب الظن . ويتميز النسخ بشيوع الحيوية حتى ليخيل إلينا اننا نسمع كلام باسكال في « محادثة السيددي ساسي حول ابيكتيت ومونتاني » .

وكما حاول في فترة توبته الاولى ان يقنع اخته وأباه وجميع افراد اسرته ، كذلك حاول في هذه المرة ان يهدي الى سبيل الله اصدقاءه امثال الدوق دي روانيز ، دوما ، وغيرهما . وتخلى عن ابحاثـــه العلمية ليحصر تفكيره ويضع مؤلفاً كبيراً يفحم الملحدين ويهديهم الى الدين : «تقريظ المسيحية»[2].غير ان مديري بور رويال طلبوا اليه ايجاد طريقة جديدة لتعليم الاطفال القراءة ، وان يضع مؤلفاً في الهندسة الابتدائية . وفي حوزتنـا

(١) اقرأ مونتاني : حياته ، فلسفتـــه ، منتخبات . سلسلة : زدني علماً رقم ٢١ « منشورات عويدات »

(٢) لقد دونت الملاحظات على اوراق وسميت فيما بعـــد « الخواطر » .

مقطعان منه تحت عنوان « في الفكر الهندسي » بيد ان تنفيذ جميع مشاريعه قد تأخر .

وفي كانون الثاني ١٦٥٥ مُنعت مناولة القربان المقدس عن السيد دي ليوكور لأنه عهد بتربية ابنه الصغير الى دير بور رويال . حينئذ نشر أرنو ، احد مديري بور رويال ، رسالة اولى موجهة الى احد النبلاء بخصوص هذه القضية . فهاجم اليسوعيون هذه الرسالة بعنف ؛ فاجاب بقوله : ان السدة الرسولية شجبت قضايا جانسينيوس الخمس وهو يمتثل لهذا الامر ، ولكنه لفت الانتباه الى ان القضايا المشجوبة غير واردة في كتاب جانسينيوس . فأحيل أرنو الى كلية اللاهوت . فأدانت هذه الكلية ارنو ، مدعومة بالحكومة وخاصة باليسوعيين ، وذلك بعد مناورات دفعت راسين لأن يقول بأنه لم يصدر قط حكم اقل شرعية من هذا الحكم .

لم تكن إدانة أرنو تتناول سوى الوجه الواقعي ؛ اما من الوجه القانوني فكان يُعتقد ايضاً في بور رويال بصحة الادانة ، ورجوا أرنو ان يعرض القضية على الجمهور الذي كان يهتم بالمسألة دون ان يعرف جميع عناصرها ؛ فكُلف باسكال بأن يؤلف شيئاً من اجل

الجمهور ، فوضع « رسالة اولى موجهة الى ريفي من احد اصدقائه » ونشر هذه الرسالة في ٢٧ كانون الثاني ١٦٥٦ تحت اسم « لوي دي مونتـال » المستعار . وبعد اربعة ايام ادان السوربون أرنو ورفع اسمه من قائمة اللاهوتيين، وفي ٥ شباط صدرت الرسالة الثـانية ، وبعد اسبوع نُشرت الثالثة ، وتلتها الرابعة بعد بضعة ايام .

رغم مساعي أرنو وتفسيراته ، اضطرت جمـاعة بور رويال الى التفرق وأغلقت مدارسهم بنـاء على قرار ملكي . وكان في عدادهم مرغريت بيرييه المصابة بنزيف دمعي . وفي ٢٤ آذار كان جميع اهل الدير يتقربون من شوكة مأخوذة من بقـايا اكليل المسيح ، وكانت قد اعيدت لهم من قِبَل احد الآباء ، وكان هـذا الاخير يحافظ عليها في كنيسته الخاصة . ولما جـاء دور مرغريت للركوع مست الشوكة المقدسة عينها فشفيت في الحال . وفي الايام التالية ، حدثت معجزات ممـاثلة دفعت الى الاعتقـاد بأن الله اصطفى بور ريال بمحبته ، لان الشوكة المقدسة لم تسبب مثـل هذه الحوادث من قبل . نتيجـة لذلك ، تمكن اهل الدير من العودة الى بور رويال دي شان ، واستمرت مدارسهم في العمل .

غير ان باسكال رأى في معجزة الشوكة المقدسة وفي شفاء مرغريت نذيراً ربانياً موجهاً اليه شخصياً ، ورأى فيه ايضاً نوعاً من الاستحسان لكتاباته . حينئذ ضاعف هجماته واصدر الرسالة الريفية الخامسة الموجهة ضد اخلاق اليسوعيين، وأصدر تباعاً خمس رسائل اخرى. وبعدما حمل على مذهبهم الاخلاقي هاجم سياستهم في الرسالة التالية . وكي ينفي عن بور رويال تهمة البدعة ، كتب في كانون الثاني وآذار ١٦٥٧ رسالتيه الريفيتين الاخيرتين .

لقد جعلت هذه الحملة قسماً كبيراً من الناس وعدداً كبيراً من قساوسة اسقفية باريس يناصرون بور رويال ، ولكنها لم تحل دون إدانة الراهب جانسينيوس إدانة صريحة . واعتُبرت الرسائل الريفية كـ « كتاب قدح وذم يُمنع بيعه وترويجه ويتعرض المخالف للأشغال الشاقة » .

قلنا ان باسكال نشر الرسالة الريفية تحت اسم مستعار خوفا من التعرض لانتقام خصومه الاقوياء ، وللسبب نفسه اضطر الى تبديل مسكنه عدة مرات في ١٦٥٥ ثم في ١٦٥٦ ، فسكن تباعاً « خارج باب سان ميشال

وعلى مقربة منه ، ثم في شارع بواريه .

اجتذبت معجزة الشوكة المقدسة افواجاً غفيرة الى بور رويال . وكان من جملة من اتى للتنسك والعبـــادة الآنسة دي روانيز شقيقة الدوق دي روانيز ، صديق باسكال . كان عمرها ثلاثة وعشرين عاماً وحتى هاتيك الآونة لم يمكن تفكيرها متجهاً إلا الى الدنيا . ولما خطر ببالها ان تصبح راهبـــة فاتحت باسكال بالأمر . ولقي مشروعها معارضة شديدة من امها فـــذهبت الى بواتو حيث استمرت في مراسلة باسكال متحدثة اليه عـــن استعدادها الكامن . ولسوء الحظ لم يبق في ايدينـــا الا قسم من رسائل باسكال التي كانت الآنسة دي روانيز قد حافظت عليها . وكان من عادتها الرجوع الى قراءتها لمـــا عادت الى الحياة الاجتماعية وتزوجت بعد وفاة باسكال. وقد عاشت حياة كئيبة جعلتها تأسف غالباً لانهـــا لم تسر مع استعدادها .

كان باسكال يتمتع بأهلية حقيقية لتوجيه النفوس . وغالباً ما كان يقع على « اشخاص عظيمي الفكر كبيري القدر يستشيرونه في الخلوة ويتقيدون بنصائحه . كما كان هناك آخرون تراودهم الشكوك في مسائل الدين ،

يقصدونه للمشورة وينصرفون راضين دائما » . وتجنباً لارتكاب الخطأ بدافع الكبرياء ، كان يتمنطق بحزام شائك يضعه على اللحم مباشرة . وكلما « احس بالزهو كان يضرب نفسه بمرفقه ليضاعف شدة الوخز ويتذكر واجبه » .

هذا التعذيب لم يكف هذه النفس القلقة للسير قدماً في طريق الرب ، فنشد الفاقة اقتداء بالمسيح ، وأعرض عن كل ما يحب ، ولم يرغب في ان يكون موضع اهتمام كبير . كان يقول : « لست غاية احد ، لأن مصير الموت » واعتبر العلوم اموراً باطلة . ولم يعد يُكرمها الا بمقدار ما تفيد في تنشيط تقواه . وازدادت حالته الصحية سوءاً ، وانتاب رأسه الصداع المستمر ، ولكنه رضي بهذه الحالة في استكانة بل في سعادة ، لانها تقربه من الله .

وذات يوم ، فيما تقول مرغريت بيرييه ، أصيب بآلام شديدة في الاسنان منعته من النوم . « وفي ساعات سُهده عنت له فكرة بخصوص الدائرة الدوارة » . وخلال بضع ليال ، انتقل من فكرة الى فكرة ، الى ان اكتشف حل المسألة التي كان الاب مرسين قد طرحها

كانت هذه المسألة تتعلق بموضوع معادلة الدائرة الدوارة La quadrature de la roulette او منحني الدائرة الدوارة Cycloïde . (تطلق هذه التسمية على المنحني الذي ترسمه نقطة من دائرة تدور على خط مستقيم[١]) .
ولو ان الدوق دي روانيز لم يُبين له ضرورة اعلان نتيجة ابحاثه في مصلحة الدين وليثبت للملحدين انه يعلم على الاقل بمقدار علمهم في كل الامور التي يمكن البرهنة عليها ، نقول لو ان الدوق لم يفعل ذلك لترك باسكال ثمرة تأملاته تضيع . ولإحاطة القضية بدوي عظيم ، نظم باسكال بنــــاء على ما اسدي اليه من نصح مسابقة مشفوعة بجائزة مالية تُقدم الى من يهتدي الى الحل . لكن لم يتمكن اي فرد من اعطاء الحل الكامل . حينئذ نشر برهانه وقد كتبه في ثمـانية عشر يوماً . وكان اثنان من عمال المطابع يصفان الحروف كلما بعث اليهم بالمواد الجاهزة للطبع . ولقد استعمل في حله طرقاً تسمح لنا بأن نقول بأنه كان احد مكتشفي حساب التكامل والتفاضل . ووضع باسكال ايضاً مشروعاً للنقل المشترك في مدينة باريس ، وكان بوده تخصيص ارباح هذه

---

(١) دون ان تنزلق – المعرب .

العملية لفقراء « بلوا » . وسارت القضية في البدء سيراً حسناً ، الا ان معارضة بعض ذوي المصالح اسقطت المشروع .

●

في ٩ آذار ١٦٦١ توفي مازاران. وبعد موته ببضعة ايام عادت الاجراءات الصارمة ضد بور رويال الى الاشتداد . وكانت قد توقفت تماماً بعد معجزة الشوكة المقدسة ، ربما بناءً على تدخل الملكة والكردينال ؛ وبعد إدانة جانسينيوس أُعد بيان كان على كل اهل بور رويال ان يوقعوا عليه اظهاراً لموافقة الجميع على الإدانة . فرضخ بور رويال باريس نزولاً عند نصيحة أرنو ، إلا ان بور رويال دي شان أبدى مقاومة ولا سيما جاكلين باسكال التي كتبت « بما ان للمطارنة شجاعة النساء فينبغي للنساء ان يتحلين بشجاعة المطارنة » . ولكن بناء على تدخل فئات عديدة وقعت على البيان بعكس رغبتها ، وتوفيت بعد ثلاثة اشهر في السادسة والثلاثين . كانت جاكلين احب شخص الى قلب باسكال ؛ فلما علم بوفاتها اكتفى بقوله : « فلينعم علينا المولى بمثل هذه الميتة الصالحة » .

بعد توقيع البيان ، اراد اعداء بور رويال مزيداً من الإدانة لجانسينيوس ولمبدأ العون الفعـال . حينئذ أبى باسكال قبول ما يعتبره مخالفاً للصدق المسيحي : يجب ان نطيع الله دون ان ندخل ذيول طاعتنا في الحسبان. ولكن جرت تخطئة باسكال في مناقشة جرت بينه وبين أرنو ونيقول وغيرهم من سادة بور رويال . وكان باسكال قد بذل مجهوداً كبيراً للتغلب على مرضـــه وحضور الاجتماع ، وأغمي عليه وفقد وعيه لمـا رأى « تزعزع اولئك الذين حباهم الله بمعرفة الحقيقة ويتحتم عليهـــم الدفاع عنها » .

وازدادت حالته الصحية سوءاً. « واستمرت اسقامه دون انقطاع » . ولم يغد قادراً على العمل ولا على رؤية احد ، وأخضع لنظام صارم ، وتقبل كل ما طلب اليه تناوله رغم « ما كان يشعر به من اشمئزاز » . وعُني في استمرار بكبح حواسه، وتضاعف احسانه على الفقراء. وقبل وفاته بثلاثة اشهر ، صادف فتاة طلبت اليـــه صدقة . وكانت قد فقدت أباها، ودخلت امها مستشفى اوتيل ديو . فعهد بها الى احد المطارنة وضمن معيشتهـا مع اخفاء اسمه . كما استضاف في بيته « رجلاً بسيطاً مع

زوجته واولاده وأعطاهم غرفة وقدم لهم الحطب لوجه الله لا يريد منهم جزاءً ولا شكوراً » .

بعد مضي ثلاثة ايام على اقامته عند شقيقته، اصيب بآلام مبرحة في الامعاء لم يكن ليوقفها شيء . حينئذ اعترف واراد تناول القربان المقدس . فمنعه الاطبـــاء لانهــم لم يكونوا يرغبون في السماح له بالصيام . فطلب حينئذ ان يُستدعى الى غرفته فقير مريض يلقى معاملة كمعاملته . ونظراً لاستحالة ذلك ، اراد ان يُنقــل الى مستشفى الامراض المستعصية على الشفاء ليموت بـــين الفقراء . واشتدت آلامه وازداد صداعه . وفي السابـع عشر من شهر آب طلب اجراء فحص طبي ولكن دون ان يسلم من الوساوس. فأكد له الاطباء عــدم وجود اي خطر فلم يصدق كلامهم ورجا ابنة اخته ان تخطر احد رجال الدين ليقضي الليل بجانبه. وحوالي منتصف الليل اخذته رعشة شديدة ، فخيل اليهم انه فارق الحياة... دون تناول اسرار القربان المقدس . الا ان الرعشة توقفت ، كأنما بفعل معجزة ، وعاد الى وعيه التــام . وانه لفي هذه الحال إذ بالخوري يدخل مع القربان المقدس قائلاً : « هوذا مبتغاك » . فنهض باسكال نصف

نهضة ، وإذ سأله الخوري عن اسرار الإيمان الاساسية اجاب بقوله : « اجل يا سيدي أؤمن بكل ذلك . وبكل جوارحي» . ثم تلقى المسحة الاخيرة extrême -onction وشكر الكاهن وقال : « فليكن الله معي دائماً » . وعاودته الرعشات واستمرت الى ان فاضت روحه بعد اربع وعشرين ساعة في ٩ آب ١٦٦٢ في الساعة الواحدة صباحاً . وكان عمره تسعة وثلاثين عاماً وشهرين .

وقد كشف تشريح الجثة عن وجود غنغرينة في الاحشاء . ولاحظ الاطباء ضخامة عجيبة في الدماغ ، كما لاحظوا « قبالة البطينات علامتين ممتلئتين بدم مخثر فاسد مع بداية انتشار الغنغرينة » .

وفي وصيته كان باسكال قد كتب انه « يرغب في ان يُوارى في كنيسة سانت إتيان دو مون في مدينة باريس » . وفي يوم الاثنين ٢١ آب ، الساعة العاشرة صباحاً، دفن بحسب مشيئته في كنيسة سانت إتيان عند اسفل اول اعمدة المحراب .

الباب الثاني

فلسفته

اذا كان الفيلسوف شخصاً يضــع مذهباً متماسك الأجزاء من جهة ، وقادراً على تقديم حل لكل المسائل الممكنة من جهة اخرى ، فلا شك في ان باسكال ليس بالفيلسوف . لكن اذا كان، كما يقول إ. رينان « الفكرَ المهتم اهتماماً قدسياً بكل شيء » ، والمفكرَ « مهما يكن موضوع تفكيره » ، فليس باسكال فيلسوفاً فحسب بل ايضاً احد الذين يتميز انتاجهم حقاً بالحيوية والدلالة .

لا يمكننا ، فيما نعتقد ، ان نُكوّن فكرة اجماليــة عن هذا الانتاج ، إلا اذا ميزنا فيه قسمين : قسماً ، ان صح القول، اساسياً انتظمت حوله في نهاية المطاف اوضح تأملاتــه وأجلى خواطره ، وقسماً ، ان صح القول ، فرعياً يتعرض فيه لمواضيع بالغة التنويـع ، بفطنة ورفعة وبلاغة فريدة .

وفي هذا الكتاب سنهتم خاصة بالقسم الاساسي من انتاج باسكال ، لأن الاجزاء الثانويــة بغنى عن الشرح والتفسير .

الفصل الأول

محور اهتمامه : الأخلاق

فلنحاول اولاً ان نستخلص محور اهتمامه .

لقد بين لنا باسكال ذلك بوضوح تام . ان المشكلة الاساسية بالنسبة الى الانسان هي ان يعرف كيف ينبغي له تنظيم سلوكه وحياته . فاذا ألم بكل شيء وجهل هذه النقطة ، فاز بالكمالي وفاته الضروري. واذا حصل على هذه النقطة ولا شيء سواها، ظفر بكنز يغنيه عن سائر الاشياء . « لن اجد في علم الاشياء الخارجية ما يعزيني عن الجهل بالاخلاق وقت المكاره، ولكنني واجد لا محالة في علم الأخلاق ما يعزيني عن الجهل بالأشياء الخارجية ». فليس أهلاً بالاهتمام اذن إلا هذا العلم وحده

والواقع ان معظم الفلاسفة الذين أتوا قبل باسكال ادركوا ذلك . ولكن ما الذي لم يتوفر لهم ؟

الفلاسفة القدماء

لقد تصدى الفلاسفة القدماء لهذه المسألة وحرصوا على تعريف الخير الأسمى Souverain Bien بوسائل عقلانية . فلم يصلوا إلا الى نتيجة واحدة : لقد أظهروا باختلافهم في الرأي عجزهم التام عن حل هذه المعضلة .

انباسكال يستعيد التعاريف العديدة والمتناقضة التي اقترحها هؤلاء الفلاسفة ويبدي عجبه : « يقول أحدهم ان الخير الأسمى في الفضيلة ، ويجعله الآخر في اللذة ، والآخر في علم الطبيعة ، وغيره في الحقيقة ، وغيره في الجهل التام ، وآخرون في مقاومة الظواهر ، وآخر في عدم تأمل أي شيء . ويجعله المتشككون الحقيقيون في السكينة والشك بلا انقطاع . ويعتقد غيرهم أنهم توصلوا الى ما هو افضل . فيا لها من نتيجة ! » .

الفلاسفة الحديثون

اما الفلاسفة الحديثون فلم يكونوا اسعد حظاً .

ان مونتاني انتقد العقل الانساني انتقاداً ضروريا ،

انتقاداً مراً ، لكنه ضعف في ميدان علم الأخلاق . فهو يمتدح « الجهل والاعراض » ، والميل الى الحكم على الخير والشر بناء على الظواهر الأولى ، والاخلاص لسُنَّة يجب اتباعها لا لشيء الا لأنها سُنَّة . انها منتهى اللاأخلاقية، في عُرف باسكال ، وهي جديرة بصواعق غضبه .

في حين يأمل ديكارت بان تُحل المسألة الأخلاقية عن طريق ميتافيزياء تسمح بوضع فيزياء ، تفسح بدورها المجال لاقامة ميكانيك وطب وعلم أخلاق . ويجب الاكتفاء بأخلاق موقتة ما دام هذا الأمر غير واقع. الا ان ديكارت يتميز في الوقت نفسه بأنه « عقيم وحائر » ومريب التقوى : « كان بوده لو استطاع الاستغناء عن الإله في كل فلسفته لكنه كان بحاجة إلى دفعة محرِّكة » .

فلنبتعد اذن عن امثال هذه الطرق .

وأما كبار ممثلي الأخلاق المسيحية فهم على حق في ان يكونوا مسيحيين ، غير ان بعضهم اعتقدوا ان عليهم ، لتسويغ ايمانهم المسيحي ، ان يشيدوا بناء من المحاكات العقلانية المزعومة . وتصوروا ان لديهم ادلة فلسفية على وجود الله ، وخلود النفس ، وعلى الطابع القدسي للشعور الاخلاقي ، ومن ثم على ضرورة وجود

قاعدة سلوك معينة . وظنوا انهم يخدمون الدين بهذه الصورة ، بل ذهب نفر منهم الى ابعد من ذلك ، فلم يأملوا فقط بأن يجعلوا مع الديانة التقليدية مذهباً يؤمن بالله ولا يقول بوجود الوحي ، بل أملوا ايضاً ان يستعيضوا عنها بالمذهب المذكور[1] .

ليس من شك في ان الذين يسيرون في هذا الاتجاه هم من ذوي النية الحسنة . بل ليس من شك في ان بعض ادلتهم كافية بالنسبة الى اولئك الذين كانوا مقتنعين سلفاً لأن قلوبهم عامرة بالايمان . لكن ما قيمتها بالنسبة الى الملحدين الفاسقين ؟ الواقع ان الكنيسة تشجب المذهب المذكور وتكاد تكرهه « كرهها للالحاد » . وهي على حق .

هي على حق . اولاً لأن محاكات اصحاب هذا المذهب واهية جداً في الحقيقية ، فهم ينطلقون من معرفتهم بالطبيعة ويزعمون اثبات وجود الله بلفت الانتباه الى السماء و « الطيور » . يقول باسكال « إنّ أعجب فعجبي لجرأة هؤلاء الاشخاص في حديثهم عن

---

(١) déisme مذهب المؤلهة الذين لا يؤمنون بوجود وحي .

الإله . انهم اذ يوجهون الكلام الى الزنادقة يبدأون باثبات الألوهية مستدلين بما في الطبيعة من موجودات . لو كانوا يتوجهون بكلامهم الى المؤمنين الصالحين مـــا عجبت من محاولاتهم . فمن كان قلبه عامراً بالايمان ير في الحال ان كل مـــا هو موجود هو من صنع الخالق المعبود . اما ان نقول للضالين ، كي يهتدوا بنور اليقين ، تأملوا ابسط الاشياء تروا وجه الله جهرة ...

وان تكون بَيِّنَتُنا الوحيدة على هذا الموضوع الكبير الخطير سير القمر الدوار والكوكب السيار ...

وان نزعم ان البينة بلغت حدود الكمال بمثل هذا المقال ...

فمعناه دفعهم الى الظن بأن ديانتنـا تستند الى حجج واهية » .

وهي على حق ايضاً ، لأننـــا اذا دعونا الناس الى المجادلة في الله فلن يتجنبوا بعض التأكيدات . ان القول بوجود الله يعني رفض الاصغاء الى بواعث الشك ، ويعني القول بوجود شيء مبهم مستغلق . « اسرح النظر في كل مكان فلا تقع عيني الا على الظلام الدامس ، كل مـا في الطبيعة مجلبة للشك مدعاة للقلق. لو كنت لا ارى شيئاً

يدل على الله لعزمت على الانكار . ولو كنت ارى في كل مكان آية على وجود الخالق لركنت الى الايمان . ولكنني في حالة يرثى لها لأنني ارى اكثر مما يسمح بالانكار واقل مما يسمح بالاطمئنان » . واذا ذهبنا الى ابعد من ذلك اضطررنا الى الاعتراف بالأمر « لو كان هناك إله لما ادركته العقول لأنه بلا اجزاء ولا حدود . وليس له اي علاقة معنا . نحن اذن عاجزون عن ان نعرف ما هو ، وهل هو موجود » .

يا لها من طريق غريبة يسلكها العقلانيون أصحاب المذهب المذكور ! فاذا اردنا ترسيخ الدين واقناع الملحدين ووضع قواعد الخلق المتين ، وجب علينا ان نتجنب لغتهم وان نتحدث بلغة اخرى .

ولكن اي لغة ؟ اننا ندرك ذلك اذا انتبهنا الى ما جاء في كتاب باسكال « التصانيف الفلسفية » وفي ملحوظات كتابه « تقريظ المسيحية » . وقد نشرت هذه الملحوظات بعد وفاته تحت عنوان : « خواطر »

الفصل الثاني

طرق البحث

إذا أمعنا النظر في محاولات البشر لإرساء معارفهم، تبين لنا وجود ثلاثة انواع من المحاولات : فبعضها يستهدف البرهنة على بعض الحقائق بصورة مسبقة ، ويستهدف بعضها الآخر التحقق من الأفكار المتذهّنة عن طريق التجربة ، بصورة بعدية ؛ اخيراً يسترشد قسم منها بهذه الفكرة التالية : هناك مراجع تُعتبر حُجة ويجب تصديقها . والحقيقة ان هناك ثلاثة مصادر يجدر الاستفادة منها . لكن ليس لها نفس القيمة ويجب ان لا تُستعمل بنفس الصورة .

في الرياضيات

في هذا الميدان لا تجدي التجربة ولا الحجة. فالامور الرياضية حقائق تجريدية لها جـــواهرها ونواميسها . ويمكننا تحديد خصائصها عن طريق المحاكمـــة فقط ، لكن ، في سبيل ذلـــك ، يجب البدء بوضع تعاريـــف ومبادىء وبديهيات . بعد اتخاذ هذه الاحتياطات ، لا شيء اسهل من البرهنة على سلسلة من القضايا .

الحقيقة ن المثل الأعلى في هذا الميدان ، كما يقول باسكال، هو ان نعرّف كل المفاهيم وان نثبت كل القضايا. إلا ان مثل هذا المثل الأعلى غير قابـــل للتحقيق ، لأننا في الحقيقة نعرّف شيئاً بشيء آخر والشيء الثاني بثالث والثالث برابع . ومن تعريف الى تعريـــف ، نصل لا محالة الى حدود اولى لا يمكن ارجاعها الى حدود ابسط، وتكون بالتالي غير قـــابلة للتعريف . كذلك لا يمكن البرهنة على كل القضايا . انها تقبل البرهنة ما دمنـــا قادرين على ان نثبت بأنه للتمكن من طرحهـــا لا بد من طرح قضية اشد بساطة واكثر بداهة ، او لا بـــد من طرح تعريف اتفق عليه . لذلك ، هنا ايضاً لا نستطيع

السير الى ما لا نهاية .

ان الطريقة المثلى، اي «تعريف كل شيء وإثبات كل شيء » هي اذن فوق متناولنا . لكننا نستطيع على الاقل ان نعرف كل ما هو ممكن التعريف ، اي كل ما ليس بحد بسيط اطلاقاً ، وان نبرهن على كل ما هو قابل للبرهنة ، اي كل ما يمكن ارجاعه الى عناصر ابسط ؛ وهذا ما ينبغي عمله في الرياضيات . واننا ننجح فيها ما دمنا نأخذ بعض الاحتياطات الاولية .

ان باسكال يلخصها في ثلاث زمر من القواعد :

« أ – قواعد للتعاريف :

١ – يجب ان لا نقدم على تعريف اي شيء من الاشياء المعروفة في حد ذاتها ، لدرجة انه لا توجد لدينا ابداً عبارات اوضح لتفسيرها .

٢ – يجب ان لا نترك اي عبارة من العبارات الغامضة او الملتبسة دون ان نعرّفها .

٣ – يجب ان لا نستعمل في تعريف العبارات إلا كلمات معروفة بشكل تام او سبق تفسيرها .

ب – قواعد للمبادىء :

١ – يجب ان لا نترك اي مبدأ من المبادىء اللازمة

دون ان نتساءل هل نقبل به ، وذلك مهما يكن واضحاً وبديهياً .

٢ – يجب ان لا نحول الى مبادىء الا الاشياء البديهية تماماً في حد ذاتها .

ج – قواعد للبراهين :

١ – يجب ان لا نبرهن على اي شيء من الاشياء البديهية في حد ذاتها لدرجة انه لا يوجد لدينا ما هو اوضح منها لاثباتها .

٢ – يجب اثبات كل القضايا الغامضة ، وان لا نستخدم في البرهنة عليها الا مبادىء بديهية او قضايا سبق قبولها او البرهنة عليها .

٣ – يجب ان نستبدل ذهنياً المعرّفات بالتعاريف ، كي لا نخطىء بسبب التباس العبارات التي ضيقتها التعاريف .

تلك هي القواعد التي تشتمل على مبادىء البراهين الراسخة الثابتة »

في الفيزياء

ان التجربة ، في الحقيقة ، هي التي تقدم الوقائع التي

ينبغي للفيزياء ان تستهدف معرفتها وتفسيرهـــا. والى التجربـــة ايضاً ينبغي لنا الرجوع اذا اردنا انتأكد من قيمة الافتراضات التي اجريناها . كل بحث خـارج نطاق التجربة نوع من الجنون . وحينما يزعم شخصمثل ديكارت انه يستنتج قوانين الحركة من صفـات الله ، يرتكب خطأ منهاجياً لا يُغتفر . « ان اسرار الطبيعة خفية . وعلى الرغم من ان الطبيعة تمارس تأثيرها دائماً ، فاننالا نكتشف مفاعيلها دائماً. ان الزمنهوالذي يكشف مفاعيلها من عصر لعصر ، اما التجارب التي تتيح لنا فهم الطبيعة فتتكاثر في استمرار . وبما انها المبادىء الوحيدة للفيزياء فان النتائج تتكاثر بتكاثرها » .

ان باسكال لا يشرع بنظرية التجريب ، بل يفعل ما هو افضل ، اذ يقوم هو نفسه بعمـــل العالم الفيزيائي . والجميع يعرفون الفرضيات الخاصة بثقالة الهواء ، وكره الفراغ ، وانبوب طوريشيلي . ان باسكال هو الذي صمم ونفذ تجربة برج سان جاك ؛ وربما بتأثير من ديكارت ، هو الذي طلب الى بيرييه ان ينفذ تجربة بوي دي دوم الشهيرة ، وبين له كل ما يجدر عمله في سبيل نجاحهـــا. واذا كان أوزو هو الذي صمم تجربة الفراغ في الفراغ ،

هذه المسألة التاريخية الغامضة ، فان باسكال ســـاهم فيها دون شك واستخلص النتائج الحاسمة في تجارب روان . وقد ادى ذلك كله الى نظرية توازن السوائل ونظريـة ثقالة الهواء ؛ فرأينا الرياضيات والفيزياء ، في احـدى المرات الاولى في التاريخ ، تتحدان معاً لتقدما لنا نظرة حول قوانين الطبيعة وسيرها .

في اللاهوت

اذا كانت الرياضيات تعتمد على مجرد المحاكمة بصورة مسبقة ، والفيزياء على التجارب وحدها ، فثمـة مسائل تعتمد على المرجع الحجة . « اذا اردنا ان نعرف من كان اول ملك للفرنسيين ، وفي اي مكان يجعل الجغرافيون دائرة نصف النهار Méridien ، ومـــا هي الكلمات المستعملة في لغة ميتة ، وكل الأشيـاء الاخرى المماثلة ، فأي وسيلة غير الكتب تقودنا الى ذلـك ؟ ومن بوسعه اضافة شيء جديد الى معلومات هذه الكتب ما دمنــا لا نريد ان نعرف الا ما تشتمل عليـه ؟ المرجع الحجة وحده هو الذي يستطيع ان يوضح الاشياء لنا » . اذا جاءنا شخص بشهادة وكان جـديراً بالتصديق فيكفي

ذلك لاقتناعنا في امثال هذه المواضيع. فاذا اختفى كل مرجع حجة فما علينا الا ان نلزم جانب الصمت .

هذا بالضبط ما يحدث في اللاهوت . أصحيح ان الله تراءى لموسى عند جبل سيناء ؟ أصحيح ان المسيح صنع المعجزات ؟ أصحيح أنه صلب ؟ ماذا اوحى الله الى موسى ؟ بم بشر المسيح ؟ كيف يتسنى لنا ان نعرف هذه الامور بغير المرجع الحجة ؟ « ان المرجع الحجة يكتسب قوته الاساسية في حقل اللاهوت ، لأنه ملازم للحقيقة في هذا الحقل ، ولا يمكن معرفتها إلا به ، ولتوليد اليقين التام بصدد الاشياء المستعصية على العقل ، يكفي ان نعرضها للعيان في الكتب المقدسة » .

بذلك نستطيع الاجابة على الاسئلة الهامة التالية : أيهم نصدق ؟ القدامى ام المحدثين ؟ فيما يخص الاشياء المستندة الى المحاكمة والتجربة ، نصدق المحدثين دون شك ، لأنهم يعرفون اكثر من القدامى ويستفيدون من ابحاثهم . ان الانسانية في هذا المضمار اشبه ما تكون بانسان واحد يعيش دائماً ويتعلم في استمرار . القدامى كانوا في الحقيقة كالشبان . وليست جريرتهم ان هم اخطأوا لعدم كفاية المستندات ، ولو كتب لهم ان

يعيشوا في يومنا هذا لكانوا اول من يقول غير ما قالوا في الماضي .

اما في ميدان اللاهوت فالحال مختلفة . فالذين كانوا اقرب الى الوقائع المروية هم اجدر الناس بالتصديق ، اي الشهود العيان ومن تلقف حديثهم . ان المرجع الحجة ، وهذا المرجع فقط ، هو الذي يدخل بعين الاعتبار هنا . وان باسكال يستنكر موقف اولئك الذين يعارضون تقدم العلوم متذرعين بالسُنّة ، كما يستنكر موقف الذين يدخلون افكاراً جديدة في ميدان اللاهوت بحجة تقدم العلوم ، وهو يُشهر بعماء الاولين ومكر الآخرين .

فلنعرف اذن ان نؤدي ما هو واجب في كل فرع . المحاكمة بصورة مسبقة في الرياضيات ، والتجريب في الفيزياء ، والتسليم امام المرجع الحجة في اللاهوت .

الفصل الثالث

الضلال وسبله

١ – المهتدون والضالون

إن الذين انشرح صدرهم للايمـــان بفضل مولدهم وتربيتهم يعرفون في الحـــال ما هي المراجع الحجة التي يجب تصديقها ، وما هي بالتالي القواعـــد الاخلاقية والثقافية التي يجب وضعها موضع التطبيق. انهم يعرفون ذلك بفضل « مـــبررات القلب التي يجهلهـــا العقل »، بفضل هذه الغريزة التي تجعلنا ، في حالة الايمان ، نكتنه المبادىء التي يستخلص العقل منها النتائج فيما بعد . ولا يسعنا الا ان نغبط امثال هؤلاء الافراد على حـــالهم .

« فالقلب هو الذي يحس بالله لا العقل » . ويا لسعادة من يحس به على هذه الصورة !

لكن الى جانب هؤلاء الصالحين فئة اخرى تقسم الى قسمين :

اولاً ، اللامبالون : ويأبون الاهتمام بتوجيه حياتهم . ويعرضون عن هذه المسألة على طول الخط .

ثانياً ، الملحدون: ويؤكدون كفرهم، بل يتباهون به أحياناً . فماذا نقول لكل منهما ؟

إن الأولين لا يفكرون الا في شيء واحد: التسلية . ان الوضع الانساني رهيب جداً نظراً للشكوك التي تكتنف منشأنا ومصيرنا والمسلك الذي يجدر تبنيه ؛ ومن يتأمل فيه لا يسعه ان يمنع نفسه من الدُوار ولا يأنس في نفسه الرغبة في الحياة . لذلك ، ان كثيراً من الاشخاص الذين لا يملكون القوة والشجاعة على التفكير يلوذون بالتسلية ، يلعبون بالورق او يدحرجون كرات البلياردو او يتقاذفون الكرة . فيمنعهم هذا الامر من تذكر الموت ومأساة وجودهم وحتى من تذكر أحدث احزانهم واشدها . « هكذا تمضي الحياة . ينشد المرء السكينة بمقارعة بعض العقبات ، حتى اذا قُهرت اثقلت

الراحة ظهره . لأن تفكيره سينصرف إما الى ما بـــه من مصائب أو إلى ما يهدده من مـــكاره . وحينا يرى نفسه في امان تام ينبجس السأم ، بسلطانه الخاص ، من اعماق القلب حيث جـــذوره الطبيعية ويمـــلأ الفكر بسمومه » .

ان باسكال يوبخ بشدة امثال هؤلاء الاشخاص. « اما الذين يمضون حياتهم دون ان يفكروا في غاية الحيـــاة الاخيرة ، والذين يهملون البحث لا لشيء الا انهـــم لا يجدون في انفسهم التفسير المقنع ، وينسون ان خلود النفس هو من الآراء التي يتقبلها الناس بسذاجة واثقـة او من الآراء التي تملك ، على إبهامها ، اساساً راسخاً ، اما هؤلاء فانظر اليهم نظرة مختلفة . فالاهمال في مثـل هذه القضية الهامة المتعلقة بهم وبخلودهم وبكيانهـــم يغيظني اكثر مما يستدر عطفي » .

أما الملحدون فيوجه باسكال اليهم كلاماً آخر .

انهم يطرحون حجة اولئـك الذين قصوا معجزات الماضي قائلين : كيف نصدق شهوداً مزعومين يقصون علينا ابعد الاشياء احتمالاً : توقف الشمس، تحول المـاء الى خمرة ، بعث الموتى ؟ بل انهم يذهبون الى ابعد من

ذلك : فهم ينكرون وجود إله صالـــح ونفس خالدة وقاعدة مطلقة للعدالة والصلاح . اذا كان الإله صالحـاً حقاً فكيف يتسنى لنا تفسير الشر الموجود في العالم ؟ كيف نتصور محافظتنا على ذكرى الحياة بعد الممات ؟ كيف لا نلاحظ ان ما هو حق ههنا باطلٌ هنالك ؟

بمَ نرد على هؤلاء ؟

يقول مونتاني[1] في كتابه :

Apologie de Raymond de Sebonde

ان ما يجعلُ الملحد ملحداً كبرياؤه الشامخة ، وثقتـــه المطلقة بوسائل استعلامه واثباته ، وغطرسته الوقحة . ما قيمة هذه الغطرسة اذن ؟ هل يكفي عدم فهم وجود الله وخلود النفس وخلق العالم كي يحق لنا ان نحكم بأن الله غير موجود والنفس فانية والعالم غير مخلوق ؟

لقد قال مونتاني الكلمة الأخيرة بهذا الخصوص . فما علينا إلا الرجوع إلى ما اكتشف من صيغ . ان باسكال[2] لا يفعل سوى تكرار هذه الصيغ. لكن، على حين يحافظ مونتاني على طيف ابتسامة ، يقذف باسكال

---

(١) سلسلة « زدني علما » رقم ٢١ – منشورات عويدات.

(٢) سلسلة «زدني علماً » رقم ٢٤ – منشورات عويدات.

بالحمم اللاهبة .

٢ – نقد الحواس والعقل

ما هي اذن هذه الحواس الاستطلاعية العجيبة وما هو هذا العلم العجيب الذي يستند إليه الملحدون ؟

أحواسهم ؟

. لقد انتقد مونتاني الحواس، بعد المتشككين الأولين: « انها تخدع العقل بالظواهر الكذابة » . ألا يُناقض بعضها بعضاً على الدوام ؟ ألا تغرنا بالرؤى والتخيلات والأوهام الدائمة ؟

أم محاكمتهم ؟

وهي التي يمكن ان نستخلص منها كل ما نشاء . « ان العقل مطواع قابل الميل إلى كل اتجاه » . لذلك يدفعه كل شيء الى الخطأ. المخيلة وما تستتبعه من تضليل، محبة الآخرين وبُغضُهم ، المصلحة ، المرَض. داءٌ ما له من دواء . للتأكد من محاكمتنا ، يجب ان تكون في حوزتنا علامة معصومة تدل على الحقيقة . ولكن لاكتشاف هذه العلامة يجب ان نعرفها في السابق .

أم البداهة ؟

بيد أن الفكرة اذا بدت لنا بديهية فليس هـــذا بالسبب الـكافي لأن تكون ذات قيمة حقيقية مطلقة . وعليه ، يتبدل الأمر البديهي بتبدُّل الزمان والمـكان . « ما هو حق فيما قبل جبال البيرينه باطلٌ فيما وراءها . يا لها من عدالة يحدها مجرى نهر ! » . يقال : « هنـــاك مبادىء طبيعية تفرض نفسها على عقلنا ، ويجب ان نعتبرها غير قابلة للانكار . لكن ألا يمكن ان تكون هذه المبادىء مجرد تعبير عن عاداتنا القديمة ؟ « أليست مبادئنا الطبيعية مبادئنا المألوفة ؟ » « لشد ما اخشى ان تكون هذه الطبيعة هي نفسها عادة اولى ، مثلما العادة هي طبيعة ثانية » .

وفيما يخص العلم الذي يستند اليه الملحدون ، فلنرجع ايضاً الى مونتاني . ان باسكال ، في حـــديثه مع السيد دي ساي ، يذكر برهنة مونتاني المدهشة . فنحن لا نعرف ما هي النفس وما هو الجسد وما هي المادة . ولا نعرف متى شرعت النفس بالوجود وهل لها نهاية . ولا نعـلم متى تخطىء ومتى تصيب . ولا نعلم هل الحيوانات تفكر ، ولا ندري ما هو الزمان والمكان والحركة ، والوحدة ، ولا ندري ما هي « الصحة والمرض ، الحياة والموت ، الخير

والشر ، البر والخطيئة » . ان هندستنا مزعزعة المبادىء ، والفيزياء والطب والتاريخ والسياسة وعلم الاخلاق والاجتهاد ، كل شيء غير موثوق . فيا له من تبرير لكبرياء الملحد !

إن مونتاني مصيب حينا « يوبخ العقل الخالي من الايمان توبيخاً شديداً » « حتى انه ينزله من عليائه ويقارنه مع البهائم » ويسدد باسكال ضربته الاخيرة بقوله : « لا يسعني ان لا ابتهج حينما ارى ، عند هذا المؤلف ، العقل الصلف يُهان بنفس سلاحه » .

حقاً ان « التشكك هو الصحيح » . وما كبرياء الملحد الا حماقة تسير به نحو الجريمة . فيا له من شموخ ممتهن ويا لها من سذاجة ذميمة ! « لو بدأ الانسان بدراسة نفسه اولاً لرأى مقدار عجزه عن تجاوز الحدود المرسومة . كيف يمكن ان يعرف الجزء الكل ؟ لعله يطمح على الاقل الى معرفة الأجزاء المتناسبة معه ؟ الا ان اجزاء العالم مترابط بعضها ببعض بحيث يخيل الي انه يستحيل ان نعرف جزءاً دون الآخر ، ودون الكل »

الفصل الرابع

الرهان والايمان

إذن ، ما العمل ؟

ان تشككك مونتاني يحطم الالحاد ولكن بتهديمه قيمة العقل . ألا يقضي في الوقت نفسه على كل آمالنا بوجود حياة منتظمة تنظيماً رشيدا ؟ واذا كان العقل عاجزاً ضد الدين، أفليس بعاجز أيضاً عن خدمة الدين؟

ها نحن اولاً في قلب المعضلة . ان باسكال يتملص منها بلفتته انتباه الملحد الى ما يُعتبر تصرفاً حكيماً وقت الرهان .

ان المراهن يجد نفسه امام موقفين . فاذا وُجد في

كلا الطرفين احتمال متكافىء في الربح والخسارة ، فلا يسعه إلا الامتناع عن اللعب او الاعتماد على عامل الصدفة . واذا كان هناك احتمال واحد بالربح مع وجود احتمالين في الجهة الأخرى فعليه ان يراهن حيث تكون احتمالات الربح اعظم . واذا كان احتمال الربح كبيراً جداً في احدى الجهتين وفيها فقط فمن الجنون ان لا نختار هذه الجهة .

كذلك هي الحال بالنسبة الى الوضع الانساني .

ان تنظيم حياتنا يختلف اختلافاً تاماً بحسب وجود ايماننا بوجود الله وبخلود النفس وبقواعد الأخلاق المسيحية او عدم الايمان بها . الا اننا لا نستطيع ان نثبت لا هذا ولا ذاك . فالحكمة اذن تقضي الامتناع في هذه المواضيع عن كل اعتقاد ، عن كل حكم ، عن كل عمل . ولكن مثل هذا الامتناع مستحيل . فنحن مضطرون الى الاصطفاء . يجب حتماً ان نتصرف كما لو كان الدين شيئاً صحيحاً او ان نتصرف خارج نطاقه وضده . شئنا ام ابينا يجب ان نتبنى موقفا .

ولكن اي طرف نختار ؟ علينا ان نتصرف كالمراهن . فلنر اي طرف يؤمن لنا ادنى خسارة

واعظم ربح .

إذا راهنت ضد الدين فماذا اربح ؟ بضع سنوات تسلية، ويا لها من تسلية ! «فسرعان ما تحل الأمراض». مقابل ذلك اعرض نفسي لفقدان السعادة الأبدية ، السعادة اللامتناهية .

واذا راهنت لصالح الدين فماذا اخسر ؟ لا شيء . لأنني أحيا حياة مترعة بمباهج الأمانة والاستقامة والاحسان والتقوى . ويحتمل ان اربح سعادة ابدية ، سعادة لا متناهية . أضف الى ذلك ، وهذا ما افترضه باسكال ضمنياً ، اذا اخطأت بمراهنتي لصالح الدين فان الفناء يحل بي وحينئذ لن اتبين خطأي . وهذا يجنبني الاسف عليه . لكن اذا راهنت ضد الدين واخطأت في اصطفائي فسيحكم علي بالحسرة والندامة الأبديتين . كيف التردد اذن ؟ ان النتيجة مفروضة بحكم حساب رياضي .

يجب اذن المراهنة لصالح الدين. ويجب على الانسان ان يتصرف كما لو كان مؤمناً .

وعلى ذلك يرد الملحد بقوله : « لا إستطيع ان أومن » . الا ان باسكال يحتفظ له بجوابين :

الأول يستند الى ملاحظة هامة . « انك غير مؤمن ولا ترغب في الايمان : تصرف إذن كما لو كنت مؤمناً . اذهب الى القداس ، وتناول الماء المقدس » . وكما قال مونتاني « ستصبح في نهاية المطاف مؤمناً » . لأن حركات العبادة تؤدي الى الايمان ما دامت تؤدى في انتظام .

وثمة شيء آخر. « ان الارادة من الوسائل الأساسية للايمان ، لا لأنها تخلقه بل لأن الأشياء تكون صحيحة او باطلة بحسب نظراتنا اليها » . يكفي اذن ان نريد الايمان ارادة حازمة ، وان نركز اهتمامنا على الاسباب الدافعة ، وان نصرفه عن الاسباب الباعثة الى الشك ، كيما نكون في النهاية سادة ايماننا .

الفصل الخامس

صحة الديانة المسيحية

هذا السبب موجـــود في كل ما يثبت صحة الدين المسيحي .

يجب ان نرغب في الرهـان لصالح الدن وان نؤمن بمعتقداته .

ولكن اي دين ؟ ان باسكال يجيب دون تردد : « الديانة التي يجب ان نرغب في اعتناقهـــا هي الديانة المسيحية » . والحقيقة ان هناك نوعـــين من الحجج التي تثبت صحة المسيحية وتفرض موافقتنا على معتقداتهـا وسننها. بعضها فلسفي تام، وبعضها الآخر تاريخي بحت.

١ – الحجج الفلسفية

يقول باسكال اننا ، بغير المسيحية ، لا نستطيع ان نفهم شيئاً عن الانسان ولا عن الوجود » .

فلنتأمل الانسان اولاً .

انه كائن غريب جداً . ففيه تجتمع صفات الملاك والبهيمة . انه « عود قصب ، أوهن ما في الطبيعة » . ولكن هذا العود « يتميز بالتفكير » . ان غريزته تجعله يدرك بأنه متمتع بقوى فكرية ، وطاقـــات خلقية ، وتوثبات دينية ان دلت على شيء فانما تدل على وضع ، ان جاز القول ، آلهي . ولكن التجربة تظهر له انه يملك بالاضافة الى ذلك جسداً فانياً وانفعالات شديدة واهواء مريضة ومعايب دميمة . فهو قادر على اسمى الأفكار وادنى الأحاسيس . انه اذن كائن مزدوج ، لا يدرك نفسه ما دام قلبه غير عامر بالايمان .

ولنتأمل الكون ثانياً .

انه يملك صفات موازية . نرى عظمة وجمالاً وروعة وجلالاً في اللامتناهي الكبر واللامتناهي الصغر . الى جانب ذلك ، نرى فيه ايضاً كل مـا يمكن تصوره من

فحش وآلام وامراض وسوء أخلاق ؛ وهي مشاهد مخيبة مستغلقة .

كيف نفسر اذن تجاه انفسنا وجود هذه الخلائط المتباينة من الصفات المتعاكسة ؟ يعتقد باسكال ان فهمها مستحيل اذا لم نتلمس في الديانة المسيحية ما يضيء لنا ظلمة الطريق ، فهي التي تقدم لنا تفسير اللغز ؛ ولولاها لبحثنا عنه بغير جدوى . هذا التفسير هو التالي :

ان الله خلق الانسان والكون في البدء كاملين رائعين . ولكن الانسان ارتكب الخطيئة الأولية ، وعصى امر ربه ، فطرد من النعيم الأرضي . هذا هو تفسير كل شيء .

يفسر لنا هذا الأمر وجود ملاك وبهيمة فينا . الملاك بقية وضعنا السالف ، والبهيمة ما اوجده الله فينا ليعاقب آدم في ذريته . والانسان لم يصبح هذا الكائن المزدوج الا عقاباً على خطيئته .

ومن جهة اخرى ، اذا كان الكون يظهر لنا هذا الوجه المخيب فذلك لأن « الله يختفي طوعاً » عقاباً للانسان . الا انه ترك في العالم نوراً كافياً كي يتبين المصطفون الطريق وينعمون بالخلاص ، كما بث فيه ظلمة

كافية كي يمشي الضالون ويضلون سواء السبيل .

كتب باسكال : « اما انا فاعترف.انه ما ان يكشف الدين المسيحي المبدأ القائل بأن طبيعة البشر فاسدة هابطة من عليائها حتى يجعلنا نرى في كل مكان سمة هذه الحقيقة » .

حينئذ ندرك لماذا اراد الله ان نقوم بـ « جهد ارادي » كي نمضي الى الفلسفة الحقة . الأمر الذي يعني ان نفرض على انفسنا انتهاج « طريق المذلة والخشوع ». فآدم ارتكب الخطيئة بدافع الكبرياء . والذين لا يودون ان يصدقوا الا معطيات حواسهم وبديهيات عقلهم وقيمة محاكماتهم يبقون في الحقيقة على الخط المرسوم ، ولا يستحقون ان يتجلى الله لهم ، لذلك لا يلقون الا التردد،والحيرة . اما اليقين النظري والعملي فوقف على الذين عرفوا كيف يتنصلون من آدم . وهم يتنصلون منه يوم يتصرفون بخشوع ، اي يوم يكرهون انفسهم على الايمان، ولو كان ذلك ضد معطيات حواسهم وبديهيات عقلهم . وهذا ما يفعلون اذ يجبرون انفسهم على تصديق عقيدة الخطيئة الأولية ، وهي عقيدة لا نفقه شيئاً بدونها ، ولا يمكن الايمان بها دون قمع

كبريائنا . الحقيقة ، مــا من عقيدة أصعب على العقل ، ما من عقيدة أصدم للقلب ، ما من عقيدة تتطلب مثل هــذا التخلي الواسع عن الفكر الشيطاني الذي يوسوس في نفوسنا امام الايمــان . « لا جرم انه لا شيء اصدم للعقل من قولنا بأن خطيئة الانسان الاول حلت بالذين جاءوا من بعده ولم يسهموا فيها . لا يبدو هذا الانتقال مستحيلاً فحسب بل في غاية الاجحاف ... لا جرم انه ما من شيء يصدم النفس اكثرمن هذه العقيدة » . لذلك يعتبر اذلال الفكر لدرجة الايمان بها اكثر التضحيات استحقاقاً للثواب ، فاذا تطلب الله خضوع العقل عوضاً عن تجبره الصلف فذلك « ليذل هــذه القوة المتكبرة ، قوة الحاكمة التي تزعم بأن عليها ان تكون حكم الاشياء التي تصطفيها الارادة ، وليشفي هــذه الارادة السقيمة التي افسدت نفسها افساداً تاماً بتعلقاتهــا الدنسة » . من يتنصل من كبرياء آدم يفعل البادرة الضرورية . حينئذ يكشف الله له نفسه ويكشف لهالتفسير الحقيقي للطبيعة الانسانية وللكون ، .. ويا لها من مكافأة ! » .

الحجج التاريخية

هناك ايضاً اسباب تاريخية يجب ، فيما يزعم باسكال ،

ان تدفع المسيحي الى الديانة المسيحية والى البقاء عليها. الا ان باسكال لا يأتي بشيء جديد ، بل يرجع الى الحجج التقليدية المعروفة :

ثمة حجة مستمدة من « خلود الدين المسيحي » هذا الدين الذي يقوم على الاعتقاد بتردي الانسان من حال تتميز بالمجد والوصال مع الذات الربانية الى حال من الكربة والندامة والبعد عن الله . لكننا سنعود ، بعد هذه الحياة ، الى حالنا الاولية عن طريق مسيح منقذ يأتي الى الأرض وهو دائماً عليها ؛ كل الأشياء مضت وانقضت وبقي هذا الشيء الذي من اجله وُجدت كل الاشياء » .

« ... فلنلاحظ ان انتظار المسيح استمر دون انقطاع منذ بدء العالم ،.. وانه وُجد دائماً اشخاص قالوا ان الله اوحى اليهم بأنه سيولد مخلص ينقذ شعبه ،... وان ابراهيم جاء بعدئذ يقول انه اوحي اليه انه سيولد من احد أولاده ،..

وان يعقوب صرح انه سيولد من يهوذا ،

وان موسى والانبياء جاؤا بعدئذ لينبئوا عن زمان مجيئه وعن طريقة هذا المجيء ،

وانهم قالوا ان شريعتهم ما وجدت الا في انتظار شريعة المسيح ،

وان شريعتهم دائمة الى ان تأتي شريعته الخالدة ،

وأن يسوع جاء اخيراً محققاً جميع التنبؤات . ان هذا رائع حقاً » .

وثمة حجة اخرى مستمدة من تحقق النبوءات . « ان اعظم الأدلة على يسوع المسيح هي النبوءات . فقد ارسل الله الأنبياء خلال الف وستمائة سنة ، وبعدئذ نشر هذه النبوءات مع اليهود الذين حملوها الى كل اصقاع العالم خلال اربعمائة سنة . هذا هو التمهيد الذي جرى لولادة يسوع المسيح الذي يجب على الجميع ان يؤمنوا بتعاليم انجيله » .

أخيراً يستخلص باسكال من المعجزات اثباتاً قاطعاً لألوهية المسيح . ان بعض الناس ينكرون المعجزات ، لكنهم مخطئون . « لو لم يكن هناك ابداً ما هو صحيح من ذلك كله لما صُدق اي شيء على الاطلاق » . لذلك هناك معجزات اخرى . ألم يرَ باسكال نفسه كيف شفت الشوكة المقدسة عين ابنة اخته . وكما يقول المسيح ، ان كنتم لا تؤمنون بي فآمنوا بالمعجزات . فلنعرف اذن

كيف نتبينها ونستخلص منها النتائج كما يدعونا السيد المسيح .

وعليه ، ان حقيقة المسيحية لا تدعو الى الريب . فالديانات الوثنية وامثالها تستند الى الأساطير ، أمـــا الكتاب المقدس فلا يستند الى الأساطير ؛ انه مرجـع حجة تقدست كلماته وتنزهت عن الشك .

الفصل السادس

كيف نفسر المسيحية

بقي علينا ان نعرف كيف يجب ان نفسر المسيحية . وقد سبب هذا الامر مناظرات عديدة ، كانت اخطرها المناظرة التي جرت بين اليسوعيين والجانسينيين في عهد باسكال .

١ – نقد التفسير اليسوعي

يعتبر باسكال التفسير اليسوعي سيئاً ومقيتاً .

أولاً : انهم بنظرتهم القائلة بالعون الكافي جددوا

البدعة البيلاجية القديمة . وارتكبوا ، مستعملين اللغة المسيحية ، نفس الخطيئة التي ارتكبهـــا ابكتيتوس بلغته الوثنيـــة . وازهوا بالقدرة فضلوا الطريق . ليس صحيحاً ان الانسان يملك دائماً في نفسه العون الكافي للتضرع الى المولى ، وانه يكفي ان نتضرع الى الله لكي يمدنا بالعون الفعال الذي نحتاج اليه . ان آدم هو حقاً ، كما قيل : « صِدّيق صالح فـــاته العون » . وكما اعلن الرسول بطرس ، لقد اختار الله وعين عباده المصطفين والملعونين . فثمة وضع حتمي مكتوب على كل مخلوق . والله يهبنا عونه الفعال او يمنعه عنـــا . هنا يكمن سر فضيلتنا وآثامنا . « إننا لا نفقه شيئاً من أعمـــال الرب اذا لم يكن مبدؤنا انه اراد ان يغوي بعض القوم ويهدي الآخرين » .

وليس صحيحـــاً ان الاخلاق تبقى مسيحية اذا نحن تساهلنا في مبادئها بحجة تكييفها مع الحيـــاة اليومية والمجتمعية . اخلاق متراخية ! إنها لعمري مخـــالفة للمسيحية تمـــام المخالفة . ان باسكال ينتقد ، بل يمرغ بالوحل ويملأ بالسخرية اولئك الذين يشرعون بهذه المهمة ويزعمون بعدئذ انهم يبسطون سلطـــانهم على الكنيسة

بمساعدة السلطات السياسية .

لقد ادخل اليسوعيون مبدأ **الآراء الاحتمالية** . اذا اشتهيت عمل شيء يستهجنه وجدانك فلست مضطراً بالضرورة الى الامتناع عنه . اشرع بتفحص مؤلفات حلاّلي المشاكل الوجدانية ولا سيما مؤلفات اليسوعيين : وانظر هل يوجد بينهم واحد قد واجه حالة مماثلة لحالتك ووجد انه بالامكان ان يُدافع عن حل ينسجم ورغباتك الخفية . اذا وقعت على واحد من هذا النوع فلديك « رأي احتمالي » . ويكفي هذا الأمر لتبرئة نفسك اذا انسقت مع رغباتك ، رغم كل الاحتجاجات المتصاعدة من وجدانك . يا له من مبدأ شنيع ، ومما يزيده شناعة وخطورة ان قائمة اللاهوتيين الذين يكفي حكمهم لايجاد « رأي احتمالي » خالية من الاسماء الشريفة مملوءة بالأسماء السخيفة !

وسمح اليسوعيون **بالتحفظات الذهنية**[1] Restrictions mentales . يُطلب اليك مثلا هل سرقت . الحقيقة انك سرقت ولكن في غير هذا اليوم . حينئذ

---

(١) يذكرنا هذا التصرف بالحيل الشرعية — المعرب —

تجيب بقولك « كلا » بصوت مرتفع ، وتتمم شهادتك مضيفاً ولكن بصوت منخفض « لم أسرق هذا اليوم » ، فلا تكون قد ارتكبت الا هفوة بسيطة. ويحتج باسكال قائلاً : ان هذا يعني التفوه بالكذب بصوت عـال مع قول الحقيقة بصوت منخفض ، فيا له من مكر قبيح !

كما قال اليسوعيون بأنه يكفي للتملص من معصية كبرى تفقد العون الرباني ان نعرف كيف نوجه قصدنا وان نتمتع بالسيطرة الضرورية على الأعصاب لنقوم بـه في الوقت المناسب ، لأن الغاية تبرر الواسطة. فاذا تحداني أحدهم للمبارزة فبوسعي ان امضي دونما خطيئة للتجول في مكان الموعد والسيف في يدي ، فاذا هاجمت خصمي كنت مذنباً جديراً بعذاب الجحـيم . لكن اذا تريثت ريثما يبدأ بمهاجمتي فلا يكون قصـدي حينما اقوم بهجوم معاكس الا الدفاع عن النفس ، ويمكنني اذن ان اقاتل بصورة مشروعة تماماً .

وها هوذا الباب يفتح لجميـع الجرائم .

كما اوجد اليسوعيون وحبذوا مجموعة من العبـادات والإشارات والطقوس والاحتياطات الصغيرة يوصون بها النفوس الورعة ويمتدحون تأثيرها من أجل الخلاص:

حمل الايقونات المقدسة ، طريقـــة للتفوه باسم المسيح ومريم في هذه المناسبة او تلك ، السجدات ، ورسم اشارة الصليب . بذلك أوجـدوا نوعاً من الصنميـــة يؤكدون مفعولها العجيب . فيا له من معتقد سيء ! ان دفع السذج من الناس الى الظن بأنه يكفي « ان يتوبوا ساعة الموت دون ان يبدلوا حياتهم الفاسدة » او « ان الله سيبعثهم » إذا استعملوا هذه الوسائل التافهة ، هو في اعتقـاد باسكال تصرفٌ « كفيل بابقـــاء الآثمين في فجورهم بسبب الفكرة الخـاطئـة الناشئة عن الثقـــة المتهورة ، بدل ان ينتشلهم منه بتوبة حقيقية لا يولدها الا العون الرباني » .

ما هو الورَع الحقيقي

كلا ، ليست هذه هي الأخلاق الحقيقيـة ، وليس هذا هو الدين الصحيح .

الورع يعني محبة الله اكثر من أي شيء ، وأن لا نحب أي شيء إلا في الله ، أي وفقاً للفكرة التي يجب أن نتمثلها عن عنايته وعدله ولطفه .

الورع هو« ان نتلاشى أمام هذا الكائن الكلي الذي اغضبناه مرات ومرات ، والذي يستطيع أن يهلكنها بحق في كل لحظة » و « أن نعترف بعجزنا عن كل شيء لولاه، وأننا لا نستحق إلا سخطه »..

الورع هو ، بالتالي ، اتباع قاعدة السلوك المزدوجة التي فرضها باسكال على نفسه : ١ً — الامتناع عن كل لذة ٢ً — الاكتفاء بما هو ضروري فقط. وهو بالتالي ازدراء كل ما درج البشر على جعله في المقام الأول من اهتمامهم ، كل ما له علاقة بالجسد بل كل ما له علاقة بالفكر ، وهو ان نعتبر البحث العلمي واكتشاف حقيقة علمية اشياء غير مشرفة ، وهو ان نتمنطق بحزام ذي مسامير وان نوجه الى نفسنا الضربات الممزقة اذا سبب اكتشافنا العلمي شعوراً بالازدهاء .

الورع هو ان نحب الفقر والفقراء وان نعطيهم كل ما نملك ، وان نعنى بهم عنايتنا بانفسنا ولو في ساعة النزاع ، وان نبذل لهم اوقاتنا وأموالنا ، وهو ان نعيش متجردين عن كل شيء منصرفين عن كل كائن . ولا يعني ذلك ان نمتنع عن حب اهلنا ، بل ان لا نحبهم الا بمقدار تعلقهم بتقوى الله ، وان نعتبر كل ما يمر بهم

من خير او شر كسانحة لتمجيد الله عز وجل ، وهو ان نتمنى بساطة النفس وصفاءها وان نتقبل بكل تواضع ما يسديه الينا الكاهن من نصائح ووصايا، وان نستسيغ البلوى باستسلام بل ببهجة وحبور .

الورع اخيراً ، هو ان نكون من الزهاد الناسكين ، وان لا نكف عن التفكير في جروح يسوع المصلوب تكفيراً عن خطيئة آدم ، وان لا نرى الأشياء ونحكم عليها الا من وجهة المولى . اذا فعلنا ذلك شعرنا بعزاء غريب وسرور عجيب . فلنقرأ هذه الرسالة التي كتبها باسكال عام ١٦٥١ بمناسبة وفاة والده : « اذا نظرنا الى هذا الحدث من خلال مشيئة الله وعدالة حكمه وبديع عنايته ، سجدنا في خشوع لسمو أسرار الرب وكرّمنا قدس احكامه وباركنا سير عنايته ، وأردنا معه وفيه وله ما اراده لنا وفينا » . وكتب الى الآنسة دي روانيز في ١٦٥٦ قائلاً : « انني ابذل قصارى جهدي كي لا أكتئب من شيء ، وكي اعتبر كل ما كان كأحسن ما بالامكان » .

الإعراض عن العالم ، الاعراض عن الذات ، الانصراف الى الله انصرافاً كلياً بالايمان والمحبة . هذا هو

معنى العبارات التي يتجلى فيهـــا أعمق قسم في فلسفة باسكال الدينية . يقول يسوع له لقد ارقت دمــائي في سبيلك فيجيبه باسكال : رباه ، اهبك كل شيء .

باسكال والاخلاق

إذا اردنا الآن ان نقدر عظمة هذا الرجــل فيجب ان نتذكر ما يلي :

بعكس كثير من الفلاسفة الذين اجادوا في الكتابة عن الأخلاق ولكنهم لم يضعوا مبادئهم موضع التطبيق، لم يكتف باسكال بمجرد الوعظ بالكلام بــل قرن القول بالفعل وكان أسوة حسنة . لقد كانت له ساعات ضعف ولا شك ؛ وخلال فترة من الزمن انغمس « في المجتمع » مع الدوق دي روانيز وميريه وميلتون ، كما كتب مقالة في اهواء الحب رأى فيها ان الحيـــاة تكون جميلة اذا ابتدأت بالحب وانتهت بالطموح . وطالب مطـــالبة شديدة باسبقية بعض اكتشافـــاته . لكن ، رغم كل ذلك ، زهد في الحياة بصورة مبكرة وكان أنموذجاً للصفاء المسيحي . ان هذا المفكر العبقري الذي اهتدى الى مبادىء الهندسة وهو في الثانية عشرة ، وألف بحثاً

في المخروطات في السادسة عشرة ، وبنى آلة حاسبة في العشرين ، واهتدى في الثالثة والعشرين الى التجارب المثبتة لوجود الفراغ ، وكتب بحثاً في توازن السوائل لا يزال محافظاً على قيمته ، والف فيما بعد « الرسائل الريفية » المدهشة الرائعة ووضع كتابه « خواطر » دفاعاً عن المسيحية ، ... نقول ان هذا المفكر العظيم كان في نفس الوقت اكثر الناس تقى وخشوعاً واحساناً واستكانة . ولم يفكر ، وهو المريض الدائم منذ الثامنة عشرة والعاجز عن العمل في السنوات الأربع الأخيرة من عمره ، الا في الاستفادة من امراضه ، من هذه السانحة الربانيه لبذل التضحيات والسيطرة على الذات والحدب على البؤساء .

كلا لم تكن الاخلاق الباسكالية بضاعة للتصدير تكتفي بمجرد الالفاظ . لقد عاش هذا الرجل مبادئه الاخلاقية . ولما مات وجدت على ثيابه « تميمة » حافظ عليها كذكرى عن ليلة تصوف احس خلالها برعشة علوية تسري في اوصاله ، وعرف ما يعرفه اهل الانخطاف والوجد في لحظة الوصال بالذات الربانية .

يجب ان لا نرثي لحال باسكال . فلنقرأ بالأحرى ما

كتب للآنسة دي روانيز : « لو لم تكن لذتنا في الحرمان والنسك اعذب من لذة الخطيئة لما تخلينا عن نعيم الدنيا لنحتضن صليب يسوع. وكما يقول تيرتوليان، لا يعتقدن احد ان حياة المسيحيين حياة أسى وكآبـــة . نحن لا نتخلى عن الملذات الا الى اخرى اعظم منها » .

الفصل السابع

نظرة عامة

لا جرم ان مجموعة المبادىء الاساسية في فلسفة باسكال تثير دهشتنا ؛ كما ان تصوفه وتفكيره « الجانسيني » يستدعيان عجبنا . فمن ذا الذي يشعر في يومنا هذا بمثل هاتيك « الرعشة » التي ولّدت لدى باسكال الازمة الفكرية الاخلاقية المتجلية في كتابه **«خواطر»** ؟

لكن اذا انتبهنا الى تفاصيل معتقداته اكثر من انتباهنا الى جملتها ، فلا يسعنا الا ان نعجب بجدة كثير منها وبطابعها الجريء . انه يتميز بنضارة عجيبة في التفكير ، وطراوة غريبة في التعبير . واننا لنرى ذلك

في بعض نظراته العلوائية ، مثلاً في هذه الصفحـــات الخالدة يضعنا فيها امام هــذين المحالين : اللامتناهي في العِظَم واللامتناهي في الصِغر ؛ ويجعلنا نلوي العنــق امام مشهديها . ونرى ذلك ايضاً في بعض تحليلاتـــه النفسانية . لنعد بذاكرتنا مثلاً الى ما حبّر من صفحات عن المخيلة وأثرها التخريبي في سير الفكر وتنظيم الافعال الانسانية ، وعن تضاد الفكر الهندسي الذي لا يعرف الا استخلاص النتائج من عدد محدود من المبادىء والفكر الأريب الذي يعرف الرجوع الى الاسباب المتعـــددة المتنوعة المحيطة بواقعة بعينها، وعن التسلية وما تدفع من شرور وما تشكل من اخطار وسبب تعلق الانسان بها اشد التعلق . كما نجد ذلك في نظراته الجمالية وطريقتــه في الحكم على الفصاحة والاسلوب، وفي تفسير استساغتنا للتناظر وتعليل وجود بعض اشكال القبح المتقاربـــة تقارب بعض اشكال الجمال ، ونجـــده ايضاً في نظرته التقديرية للحرب : « لماذا تريد ان تقتلني ؟ عجباً ! ألا تقطن في الضفة الاخرى ؟ يا صديقي ! لو كنت تقطن في ضفتي لكنتُ سفاحاً ولـكان قتلك على هذه الصورة عملاً ظالماً . لكن ، بما انك تقيم في الضفة الاخرى لذلك

أنا مقدام وعملي عادل ».ولئن تظاهر باسكال باستحسان الشيء لأنه يجنب المنازعات والخصومات ، فمع ذلك هو الذي كتب ما يلي . « اي شيء ابعد عن سبل الرشاد من اصطفائنا لحكم الدولة الوليد الاول للمملكة ؟ ... إننا لا نصطفي لقيادة السفينة ارفع المسافري نسباً » .

لقد عبّر باسكال عن ذلك كله بهذه المزايا الأخاذة التي تجعل منه احد كبار الكتاب في العالم : الانفعال والكرب والسخط ، هذه الصفات التي تكسبه فصاحة شديدة ؛ والسخرية الرفيعة التي تجعله سليطاً لا يضاهى؛ وغريزة الجمال التي تهديه الى الكلمة المصورة المعبرة الراسخة في الاذهان .

من كان في التاسعة والثلاثين رياضيا عبقرياً،وفيزيائياً مجدداً ، ومنطقياً مبرزاً ، وهجّاء قاسياً ، وأكثر الفلاسفة الصوفانيين اقناعاً واعظمهم تأثيراً ، فقد بلغ حظاً فريداً في تاريخ العالم والفكر .

الدريه كريسّون

الباب الثالث

آثاره

يمكن تقسيم انتاج باسكال الى مـؤلفات فلسفية ، اخلاقية ، دينية من جهة ؛ ومـؤلفات علمية من جهة ثانية ؛هناك أخيراً مراسلاته. وكان مراسلوه الأساسيون: السيدة بيرييه وجاكلين وهما شقيقتاه ، الأب نويل ، دي ريبير ، ليبايور ، فيرما ، الآنسة دي روانـيز ، السيد بيرييه .

ان طبعة مجموعة كبار الكتاب الفرنسيين(هاشيت، جزءان) التي يسهر على اصدارها السادة برونشفيـغ ، بوترو ، غازييه ، تتضمن كل آثار باسكال .

كما ان السيد ستروفسكي نشر مـؤلفات باسكال الكاملة في ثلاثة مجلدات .

وفيما يخص المؤلفات الفلسفية والأخلاقية والدينية ، هناك طبعات عديدة ، نذكر منها :

- **حديث باسكال مع السيد ساسي** . ج . بيرييـه (كولان ١٩٠٣)

– **مقالة في الأهواء** . ج . ميشو (فونتيموان ١٩٠٠) و ف . جيرو (هاشيت ١٩١٠) .

– **الوجيز في حياة يسوع** . ميشو (فونتيموان ١٨٩٧) .

– **الرسائل الريفية** . ظهرت هذه الرسائل في كراسات متقطعة من ١٦٥٦ الى ١٦٥٧ . وقد جُمعت الرسائل وعددها ثماني عشرة في مجلد واحد نشره نيقول عام ١٦٥٧ في أمستردام عند آل الظفير Elzévir ، الا ان المجلد يحمل اسم الناشر بيار دي لافالي في مدينة كولون.

ومن الطبعات الحديثة ، فلنشُر الى طبعة أوغست موليئيه (ليمير ، مجلدان ، ١٨٩١) .

– **خواطر** . بعد وفاة باسكال ، جُمعت كل الملاحظات التي سجلها باسكال من اجل كتابه « الدفاع عن المسيحية » ، وكانت بلا ترتيب ولا ترابط ، وذلك كما يقول إتيان بيرييه « لأنها لم تكن سوى تعبير أولي عن خواطره التي كان يسجلها على وريقات كلما سنحت لفكره . كل ذلك كان على درجة من النقص والاهمال في الكتابة بحيث لا تُحل رموزها الا بشق الانفس . فكان اول عمل لنا اننا استنسخناها كما كانت وفي نفس

الاختلاط الذي وجدناها عليه » .

لقد بدا نشر هذه الخواطر وهي على حالها امراً مستحيلاً. كما ان توضيح الأفكار الغامضة وانجاز الناقصة واستكمال الكتاب من خلال مقصد المؤلف كان تقريباً أمراً مستحيل التحقيق. ولو فعلنا ذلك لخرجنا بكتاب مختلف تمام الاختلاف . وقر القرار اخيراً على ان لا ننشر من الخواطر الا اوضحها واقربها من الانتهاء ، وان لا نجمل تحت نفس العنوان الا الخواطر التي تتناول نفس المواضيع وان نحذف البقية .

كانت المهمة شاقة . وقد اسهم في العمل أرنو ، نيقول ، الدوق دي روانيز وغيرهم . ولكننا اضطررنا في النهاية الى الحصول على موافقة جيلبرت بيرييه على بعض « التجميلات والتوضيحات والمناقلات والاضافات » وعلى بعض التعديلات في النص .

على هذه الصورة جرى تقديم الطبعة الاصلية التي طُبعت في نسخ محدودة جداً عام ١٦٦٩ . وفي العام التالي نُشر نفس النص مع بعض التعديلات الطفيفة ، وسميت هذه الطبعة طبعة بور رويال . وكانت تباع عند غليوم ديسبريز ، شارع سان جاك . وفي عام ١٧١١ ،

سلّم الكاهن لويس بيرييه بن جيلبرت نص المخطوطة الى دير سان جرمان دي بريـــه ، ومنه انتقل الى المكتبة الوطنيـــة . وقد سُجل في التراث الفرنسي تحت رقم ٩٢٠٢ . هنـــاك ايضاً في المكتبة الوطنية نسخة من النصوص الأصلية للخواطر نشرت عـام ١٦٧٠ وسلمها احد أحفاد جيلبرت بيرييه عام ١٧٣١ الى محفل سان مور في سان جرمان دي بريه .

وبحسب طبعة بور رويال ، أجريت طبعـــات كوندورسيه (١٧٧٦) و بوسو و اندريه. وفي ١٨٤٤ ، قدم فوجير طبعة بحسب المخطوطة تكاد تكون تامة . ثم جاءت طبعات هافيه (١٨٥١) و موليـنييه (١٨٧٧) و ميشو (١٨٩٦) (كان هـــذا الأخير اول من اتبع ترتيب المخطوطة) و برونشفيـغ (تآليف وخواطر ، في تصنيف جديد ، ١٨٩٧) . وفي ١٩٠٦ ، عاد غازييه الى تبني تصنيف بور رويال تقريبـــاً . اخيراً ، جرب شوفالييه (١٩٢٥) وماسي (١٩٢٩) تصنيفات جديدة، وكذلك تورنور (١٩٣٨) الذي نسخ النص بجميـــع رواياته وتعديلاته .

منتخبات

الفرق

بين الفكر الهندسي والفكر الاريب

في الميدان الأول[1]، تكون المبادىء ملموسة ولكنها غير متداولة بحيث يصعب الالتفات إليه، وذلك بسبب نقص العادة. لكن ما ان نلتفت اليه حتى تظهر لنا المبادىء بوضوح تام. ولا بد ان يكون فكرنا بعيداً عن السَدَاد كيما نحاكم محاكمة مغلوطة حول مبادىء هي من البروز بحيث يكاد يستحيل ان تغيب عنا.

امـــا في الميدان الثاني، فتكون المبادىء متداولة وأمام اعين الجميع. ما علينا ان نجهد انفسنا وان نكلفها عناء شديـداً. يكفي ان نتمتع بنظرة سليمة، ولكن لا بد من هذه النظرة؛ لأن المبادىء في هذا الميدان هي من الدقة والكثرة بحيث يكاد يستحيل ان لا يغيب

---

(١) نستعمل حـــالياً في الكلام الدارج: الفكر العلمي والفكر الادبي. المعرب

بعضها عنا .

الا ان اهمال احد المبادىء يؤدي بنا الى الخطـــأ .

لذلك ، يجب ان نتحلى بنظرة واضحة جـداً كي نرى المبادىء كلها ، كما يجب ان نتحلى بعدئذ بفكر مُحكم كي لا نخطىء في محاكمتنا حول المبادىء المعروفة .

لو تمتع اصحاب الفكر الهندسي بنظرة خاطفـــة سليمة لكانوا جميعاً من الأريبين ، لانهم لا يحاكمون محاكمة مغلوطة حول ما يعرفون من مبادىء. ولو تمكن اصحاب الفكر الاريب من الالتفـات الى المبـــادىء الهندسية غير المألوفة لـكانوا من الهندسيين .

ان عجز بعض الاذهان الاريبة عن الالتفات نحو المبادىء الهندسية هو الذي يجعلها غير هندسية . امـا ما يجعل بعض الاذهان الهندسية غير أريبة فكونهـــا لا ترى ما امامها دفعة واحدة. وبما ان هذه الفئة أَلِفَتْ المبادىء الهندسية الواضحة ، واعتادت ان لا تحاكم إلا بعد رؤيتها رؤية جيدة ومعالجتها معالجة جيدة ؛ لذلك تتيه في ميدان الفكر الاريب . ففي هذا الميدان تـكاد المبادىء لا تُرى ، ونحن نحس بها اكثر مما نراها . اننـا نلاقي صعوبة لامتناهية لاظهارها للذين لا يحسون بها

من تلقاء ذاتهم : فهي اشياء من الدقة والكثرة بحيث لا بد من حس مرهف يحس بها ، ويحكم بصواب واحكام بمقتضى هذا الشعور ، دون ان يتمكن في اغلب الاحيان من البرهنة عليها بالترتيب كما هي الحـال بالنسبة الى الهندسة . اننا لا نحيط علماً بمبادئها ؛ اما الشروع بذلك فهو لعمري امر ما له من نهاية . يجب ان نرى الشيء رأساً ، بنظرة واحدة ، لا استناداً الى تقدم المحاكمة ، على الاقل حتى درجة معينة . وعليه ، قلما يكون اصحاب الفكر الهندسي من الأريبين ، وأصحاب الفكر الاريب من الهندسيين ؛ لان الاولين يودون تناول الاشياء الدقيقة بصورة هندسية انهم يستوجبون الهزء لأنهم يريدون الابتداء بالتعاريف ثم بالمبادىء ؛ وهذه ليست طريقة العمل في هذا النوع من المحاكمة . هذا لا يعني ان الفكر لا يلجأ الى مثل هذه العمليات ، ولكنه يقوم بها بصورة ضمنية ، طبيعية ، ودونما صنعة.

اما الاذهان الاريبة التي أَلفَت الحكم بنظرة واحدة فتكون على حال من الدهشة — حينما نقدم لهـا قضايا يحتـاج الدخول فيها الى المرور بتعـاريف ومبادىء مفصلة — بحيث تنفر منها وتشمئز .

ولكن الاذهان المريضة ليست بالأريبة ولا بالهندسية.

ان اصحاب الفكر الهندسي ، والهندسي فقط ، يتمتعون اذن بفكر سديد ، لكن بشرط ان نشرح لهم كل الاشياء بالتعاريف والمبادىء ؛ وإلا فسد فكرهم لأنهم لا يكونون سديدي الحكم إلا في المبادىء الجلية.

اما اصحاب الفكر الاريب ، والاريب فقط ، فلا يملكون الصبر على النزول الى مبادىء الاشياء التأملية والتصورية التي لم يألفوها ولم يروها قط في العالم.

الانسان والطبيعة

انظروا الى اين تقودنا العلوم الطبيعية . فاذا لم تكن صحيحة لم يكن هناك حقيقة في الانسان ؛ واذا كانت صحيحة فانه يجد فيها موضوعاً كبيراً للخشوع ويضطر الى التواضع بهذه الصورة او تلك . وبما انه لا يستطيع البقاء دون ان يؤمن بها ، لذلك اتمنى له قبل ان يتوسع في ابحاثه عن الطبيعة ان يتأملها مرة بجد وتؤدة وان ينظر في نفسه أيضاً . فليتأمل الانسان الطبيعة كلها في عظمتها التامة السامية ، وليُبْعِد نظره عن الاشياء الوضيعة المكتنفة بها. ولينظر الى هذا النور الساطع كمصباح خالد

ينشر الضياء على العالم، ولتبدُ له الارض كنقطة بالقياس الى الدورة الواسعة التي يرسمها هذا الكوكب، وليعجب لأن هـــذه الدورة الواسعة نفسهـا ليست سوى نقطة صغيرة بالقياس الى الدورة التي ترسمها الكواكب السابحة في الفلك .

فاذا توقف بصرنا عند هذا الحد فلتتخطاه مخيلتنا . ولكنها تكلّ ولا ينضب معين الطبيعة . ان كل هــذا العالم المنظـــور ليس الا ذرة بسيطة في كنف الطبيعة الواسع . عبثاً نرومها بالفكر . عبثاً نوسع مفاهيمنا فيما وراء المـــدى المتصوَّر . ولكننا لا نأتي في الحقيقة الا بـــذرّات بالقياس الى حقيقة الأشيـــاء . انهـــا كرة مركزهـــا في كل مكان ومحيطهـــا ليس في اي مكان .

ليعد الانسان بعدئذ الى ذاته ، وليَرَ مـــا هو بالنسبة الى ما هو موجود ، وليعتبر نفسه كتائه في هذا الحيز المهجور . وليتعلم وهو في مُقامه في هذا المحبس الصغير – وأعني العـالم – كيف يُقدر الأرض والممالك وكيف يقدر ذاته حق قدره .

ما الانسان في اللانهاية !؟

وهذه ايضاً أعجوبة اخرى . فليفتش في أدق ما يعرف من الأشياء . ان الدُّويبة الصغيرة تقدم له في ضآلة جسمها اطرافاً اشد ضآلة ، وقوائم ذات مفاصل، وعروقاً في القوائم ، ودماء في العروق ، واخلاطاً في هذه الدماء ،.وقطرات في هذه الاخلاط ، وأبخرة في هذه القطرات... فليقسّم هذه الاشياء الاخيرة وليتعب نفسه في هذه المفاهيم وليكن آخر ما يصل اليه هو موضوع كلامنا . إنه قد يعتقد ان هذا اصغر ما في الطبيعة . ولكنني سأكشف له فيه عن هوة جديدة . اود ان ارسم له لا العالم المنظور فحسب ، بل سعة الطبيعة في مجال هذه الذرة المحدودة . فليرَ فيها عوالم لامتناهية العدد لكلٍ منها فلكه ونجومه السيارة وأرضه ، بنفس نسبة العالم المنظور . وليتِهْ في هذه العجائب المدهشة بضآلتها إدهاش العجائب الأخرى بسعتها .

ان جسمنا ذرة بالنسبة الى العالم، وهذا العالم ذرة بالنسبة الى الكل ، ولكن هذا الجسم عملاق بل عالم تام بالنسبة الى العدم الذي لا نستطيع بلوغه . فمن لا يعجب لذلك ؟

من ينظر الى نفسه على هذه الصورة يذعر من ذاته . انه يتأمل نفسه بين اللانهاية والعدم فيرتجف لرؤية هذه

العجائب . الا ان فضوله فيما أعتقد سيتحول الى تعجب فيصبح اكثر استعداداً لتأملها في هدوء .

والحقيقة ما الانسان في الطبيعة ؟ انـه عدم بالنسبة الى اللانهاية ، كلٌ بالنسبة الى العدم ، حدٌ اوسط بين لا شيء وكل شيء . انه عاجز عن رؤيـة العدم عجزه عن رؤية اللانهاية ، وان غـاية الاشياء ومبدأها سر مغلق بالنسبة اليه . فهل يعرف اذن غير الحـد الأوسط من الأشياء ؟

كل الاشيـاء عن العدم صادرة واليه سائرة . فمن ذا الذي يتتبع هذه المسالك المدهشة ؟ ان صـانع هذه العجائب يفهمها اما البقية فعاجزون .

●

نظن انفسنا اقدر على الوصول الى لب الاشياء منـا على الاحاطة باطارهـا الظاهري . ان المدى المنظور يتخطى طاقتنا بشكل ملحوظ . لكن ، بمـا اننا نتخطى الأشيـاء الصغيرة ، نحسب انفسنا اقدر على فهمها . بيد ان السير نحو العدم ونحو الكل يتطلب نفس المقدرة . فكلا الأمرين يحتـاج الى مقدرة لامتناهية

ويخيل إلي ان من يفهم المبادىء الاخيرة قادر ايضاً على
معرفة اللانهاية . الأول متعلق بالثاني والواحد يؤدي الى
الآخر . ان هذين الحدين المتطرفين يتلامسان ويتلاقيان
من فرط التباعد ، .. يتلاقيان في الله وفي الله وحده .

فلنعرف مدى طاقتنا . نحن شيء ما ، ولكن لسنا
كل شيء . ما نحصل عليه من وجودنا يُخفي عنا معرفة
المبادىء الأولى الناشئة عن العدم ، والقليل الذي نحصل
عليه يحجب عنا رؤية اللانهاية .

ان عقلنا يحتل في مقام المعقولات نفس المرتبة التي
يحتلها جسمنا في مدى الطبيعة .

إننا محدودون في كل شيء ، وهذه الحالة المتوسطة
بين حدّين موجودة في كل ملكاتنا . فحواسنا لا تدرك
اي شيء مفرط .

الضجة الكبيرة تصم آذاننا ،
والنور القوي يبهر أبصارنا ،
والبعد الزائد والقرب الزائد يمنعان الرؤية ،
والطول الزائد والقصر الزائد في الكلام يدمغانه
بالابهام ،
والحقيقة الزائدة تذهلنا وتحيرنا (أعرف اشخاصاً

لا يستطيعون ان يتصوروا انه اذا حذفنا أربعة من صفر بقي لدينا صفر » .

ان المبادىء الاولى مفرطة في البداهة بالنسبة الينا ،
والمزيد من اللذة مضجر مكدر ،
والمزيد من توافق الالحان لا يقع موقع الاستحسان ،
والحُسنى المُفرِطة مُسْخِطة .

إننا لا نحس بالحر الزائد ولا بالقر الزائد . فالصفات المفرطة عدوة لنا : اننا نكف عن الاحساس بها ونتألم منها . المزيد من الشباب والمزيد من الشيخوخة يعيقان الفكر. حتى لكأن الأشياء المفرطة غير موجودة أبداً بالنسبة الينا ، او كأننا غير موجودين بالنسبة إليها .

هذا هو وضعنا الحقيقي . وهذا ما يجعلنا عاجزين عن المعرفة الموثوقة والجهل المطلق . اننا نسير في طريق وسط واسع الأرجاء ، حائرين مترددين دائماً، مدفوعين من طرف لآخر . وحيثما نحط الرحال تتزعزع الآمال كأننا أمام السراب . انها الحال الطبيعية بالنسبة الينا ولكنها مخالفة كل المخالفة لميولنا . فنحن نتحرق شوقا لمستقر ، لقاعدة ثابتة نبني عليها برجاً يتسامى الى

اللانهاية ؛ الا ان كل أُسسنا تنهار، وتنشق الأرض حتى عميق الأغوار .

علينا اذن ان لا نفتش عن الأمان وأن لا نبحث عن الرسوخ . ان عقلنا يُخدع دائماً بالظواهر المتقلبة . لا شيء بقادر على تثبيت المتناهي المحدود بين اللامتناهيين المحدقين به ، الهاربين منه .

لذلك لا راحة لنا إلا في البقاء على وضعنا الذي رسمته الطبيعة لنا . وبما ان هذا الحد الوسط المخصص لنا بعيد دائماً عن الحدين المتطرفين فما جدوى الزيادة الطفيفة في معرفة الأشياء ؟

المخيلة

انها هذا القسم المضلِّل في الانسان ، صاحبة الخطأ والبُطلان . ومما يزيدها خبثاً انها ليست دائماً كذلك ، فلو كانت كاذبة دائماً لأصبحت قاعدة معصومة للصواب، لكن بما انها كاذبة في اغلب الأحيان ، لذلك لا تنبىء أبداً عن نوعها لانها تمهر الخطأ والصواب بنفس الطابع .

انني لا أتحدث عن المجانين ، بل عن أعقل العقلاء . ففي اوساطهم تتمتع المخيلة بملكة اقناع البشر . وعبثاً

يزعق العقـــل ويصيح ، ولكنه غير قادر على تحديـــد قيمة الأشياء .

هــذه القوة الصلفة ، عدوة العقل ، هذه القوة التي تسر بمراقبته والتحكم به قد أقــامت في الانسان طبيعة اخرى لتظهر مدى جبروتها. إن لها سعداءها وتعساءها، أصحاءها ومرضاها ، أغنياءها وفقراءها . انهــا تدفع العقل الى الايمان والشك والانكار . وهي توقف الحواس وتمكنها من الاحساس ، ولها مجانينها وعقلاؤهــا : لا شيء يغيظنا أكثر من رؤيتنا انها تملأ أصحابها سروراً واعتداداً اكثر مما يفعل العقل . والمـــاهرون بالمخيلة يُسرون بأنفسهم اكثر مما يُسر الحذرون . انهم يرمقون الناس بغطرسة ويجـــادلون بجرأة وثقة ، ولا يفعل الآخرون ذلك الا بخوف وحــذر . وهـــذه البشاشة المرتسمة على الوجــه غالباً ما تكسبهم تفوقاً في نظر السامعين ، لأن العقلاء الوهميين يتمتعون بحظوة عظيمة لدى حكام من هذا الطراز ، ان المخيلة لا تستطيع ان تجعل المجانين عقلاء ، ولكنها تجعلهم سعداء . اما العقل فلا يجعل أصحابه الا بائسين . فالمخيلة تعقد على رؤوسهم أكاليل المجد ، اما العقل فيغمرهم بالخزي والهوان .

من ذا الذي يوزع الشهرة؟ من ذا الذي يهب الإجلال للأشخاص والأعمال والقوانين والعظماء غير هذه الملكة المصورة؟ وكل ما في الأرض من ثروات كم هي قليلة بغير موافقتها!

الا تقول بان هـــذا القاضي الذي يفرض بهيبة شيخوخته الاحترام على شعب بأسره، يحكم نفسه بعقل خالص سام، وانه يحكم على ماهية الأشياء دون ان يقف على هذه الظروف الباطلة التي لا تخدش الا مخيلة الضعفاء! انظر اليه وهو يدخل الى مجالس الوعـظ معززاً رسوخ العقل بلهفة المحبة. ها هـوذا على أتم الاستعداد لسماع الوعظ باحترام أنموذجي. فـــاذا طلع عليه الواعـظ وكانت الطبيعة قد أعطته صوتاً مبحوحاً ووجهاً غريباً فانني أراهـــن على ان شيخنا سيفقد وقاره مهما تكن العظمة مشحونة بالحقائق العظيمة.

ان أعظم فيلسوف في العالم اذا كان واقفاً على لوحة عريضة جداً وتحت قدميه هاوية سحيقة فان مخيلته هي التي ستتغلب ولو أقنعه عقله بحسن السلامة. ان أشخاصاً كثيرين لا يتمكنون من تحمل هذه الفكرة دون ان يشحب لونهم ويسيل عرقهم.

خواطر متفرقة

اهم شيء في الحياة اختيار المهنة، وان عامل الصدفة ليتحكم بها . فالعادة تصنع البنائين والجنود والمسقّفين يقال : فلان بناء سقوف ممتـــاز ؛ كما يقولون في معرض الحديث عن الجنود : انهم معتوهون . وبالعكس، يقول الآخرون : « الحرب وحدها عظيمة ، امـــا باقي البشر فخبيثون » . واننا لنصطفي متأثرين بما نسمع من مديح يكال لهذه المهن في عهد الطفولة وبما يبلغ مسامعنـــا من استهجان لكل المهن الأخرى . ان العادة قويـــة الاثر بحيث اننـــا نخلق جميع الأوضاع الانسانية من اولئك الذين لم تجعل الطبيعة منهم إلا بشراً . ولا شك في ان الطبيعة ليست بمثـــل هذه النمطية والرتابة . ان العادة اذن هي التي تفعل كل ذلك لأنها تعاكس الطبيعة . بيد ان الطبيعة تتفوق احيانـــاً وتبقي الانسان على غريزته رغم كل عادة حسنة كانت ام خبيثة .

●

إن الطبيعة تقتدي بذاتها : فالحبة الملقاة في الأرض الطيبة تثمر . وكذلك المبدأ المغروس في الفكر السليم

يعطي أكله .

كل شيء من صنع نفس المولى وخاضع لتوجيه نفس المولى : الجذر والاغصان والثار ، المبادىء والنتائج .

●

ان الطبيعة تكرر دائماً نفس الأشياء ، وتعيد السنوات والأيام والساعات . وكذلك تتعاقب الأعداد والمسافات . هكذا يحصل نوع من اللاتناهي والخلود . هذا لا يعني ان من هذه الاشياء كلها ما هو خالد لامتناه ، بل ان هذه الكائنات المحدودة تتكاثر الى ما لا نهاية . وعليه ، ليس هناك في اعتقادي ما هو لامتناه الا العدد الذي يحقق لها التكاثر .

●

ان الزهو متأصل في قلب الانسان لدرجة ان الجندي والوصيف والطباخ والحمال يتباهى ويود لو يكون له معجبوه . بل ان الفلاسفة انفسهم يودون الشيء نفسه . وأولئك الذين يهاجمون ذلك بكتاباتهم انما يرغبون في الحصول على شرف الكتابة الحسنة . وكذلك الذين يقرأون كتاباتهم يرغبون في الحصول على شرف القراءة.

ولربما كان كاتب هذه الكلمات يحس بهـــذه الرغبة ، ولعل أولئك الذين سيقرأون هذه الكلمات سيشعرون بهذه الرغبة أيضاً ...

●

من يود ان يعرف زهو الانسان حتى المعرفة فما عليه الا ان ينعم النظر في اسباب الحب ونتائجه . ان سببه في منتهى البساطة ونتائجه في منتهى العظم . فهـــذا الشيء القليل البسيط يحـرك الأرض والأمراء والجيوش بل والعالم أجمع .

لو كان أنف كليوباطره أقصر بقليل لتغير وجه الأرض .

●

كان كراموبل سيغزو أرض المسيحية كلهـا ، ولولا تلك الحبة البسيطة من الرمل التي سدت قناتـه البولية لأطاح بالأسرة المالكة ، ولكانت أسرته قوية العود الى الأبد . الا ان هـذه الحصوة الصغيرة استقرت هناك فسببت وفاته ، فلبست اسرتـه لباس الذل ، واستتب السلم في كل بقعة ، وعاد الملك المخلوع الى عرشه .

●

خلود النفس

ان خـــلود النفس امر عظيم الخطر ، كبير الأثر ، لدرجة ان اهمال شأنه يستدعي فقدان كل شعور. ان افعالنا وافكارنا تسلك طرقاً مختلفة تبعاً لوجـود نعيم دائم او عدم وجـود مثل هذا النعيم ، بحيث يستحيل علينا ان نختط خطة بعقل ودراية الا بتنظيمها وفـق هذه النقطة التي يجب ان تكون غايتنا الأخيرة .

وعليه، ان مصلحتنا الأولى وواجبنا الأول تبَيـُّن هذا الموضوع الذي يرتبط به كل سلوكنا. ولهذا السبب، من بين غير المقتنعين، أميزُ تمييزاً كبيراً بين أولئك الذين يسعون جهدهم لمعرفة الامر وأولئك الذين يعيشون دون ان يفكروا فيه .

لا يسعني الا ان أشعر بشعور الشفقة إزاء اولئك الذين يتألمـــون بصدق من هذا الشك ، ويعتبرونه آخر المصائب ، ولا يدخرون جهداً للخلاص منه ، فيجعلون من هذا البحث شغلهم الشاغل .

اما الذين يمضون حياتهم دون ان يفكروا في النهاية الأخيرة للحياة ، والذين لا يجدون في انفسهم ما يقنعهم

ولا يبحثون عن الهدى في مكان آخر ، ولا يحاولون ان يتبينوا هل هذا الامر هو من الامــور التي تتميز بأساس راسخ رغم ابهامها في حد ذاتها ، ... اما هؤلاء فأنظر اليهم نظرة أخرى .

ان هذا الاهمال في قضية تتعلق بكيانهم وخلودهم يثير كوامن غيظي اكثر ممـا يستدر رحمتي وشفقتي . انا لا أقول ذلك بدافع من التقوى ، بل اعتقد انه يجب ان نتحلى بهذا الشعور بدافع من المصلحة الانسانية والمنفعة الذاتية . ولا ينبغي في سبيل ذلك إلا ان نرى مـا يرى الاشخاص العاديون .

لا ينبغي ان تكــون لنا نفس رفيعة التسامي كي ندرك بان الحياة الدنيا لا تنطوي على مسرة حقيقية راسخة ، وان كل ملذاتنا ليست سوى لهو عابر ، وان مصائبنا ما لها من نهاية ، وان الموت الذي يهددنا في كل لحظة سيمضي بنا لا محالة إمــــا الى الفناء السرمدي او الشقاء الأبدي .

لا شيء أصح من هذا الامر .

لا شيء افظع من هذا الامر .

فلنتظاهر إذن بالجرأة ما طاب لنا . تلك هي النهاية

التي تنتظر أجمل حياة في الدنيا .

فلنمعن النظر ولنفكر في الامر.ولنقل بعدئذ اليس حقاً ان لا جدوى فيهذه الحياة الا بترقب حياة أخرى، وان لا سعادة الا بنسبة دُنونا منها . وكما انـه لا شقاء للمؤمنين المهتدين ، كذلك لا سعادة للضالين .

انـه اذن لشر عظيم ان يعيش المرء في مثل هـذا الشك . ولكن الواجب يقتضيعلى الأقل ان نبحث اذا كنا في مثل هذه الحال . من يخامر الشك نفسه ويعرض عـن البحث فهو بائس ظالم . فاذا كان في الوقت نفسه مستريح البال قرير العين فلتأخذه نشوة الزهو وفورة الابتهاج . ان لساني عاجز عن وصف مثل هذا المخلوق المعتوه .

.. متفرقات

فلنتصور عدداً من الأشخـاص مكبلين بالأغلال ، محكومين جميعاً بالاعدام ، يُنحر قسم منهم كل يوم امام ناظر الآخرين ، ويرى الباقون وضعهم الخاص في وضع امثالهم ، وينتظرون دورهم وهم يتبـادلون النظرات بقلوب محترقة بالألم ، ونفوس فـاقدة الأمل . هذه هي

صورة الوضع البشري .

●

فلنتصور رجلاً محبوساً في زنزانة ولا يعلم هل صدر الحكم عليه . ولنتصور ان لديه ساعة من الوقت ليعرف حقيقة الأمر مع العلم بأن هذه الساعة تكفي لالغاء الحكم اذا علم بصدوره . انه لشيء مخالف للطبيعة ان يقتل هذه الساعة في اللعب بالورق لا في الاستعلام عن الأمر .

لا يثبت وجودَ الله اندفاعُ الذين يفتشون عنه فحسب ، بل ايضاً عماء الذين لا يفتشون عنه

●

حينما أنعم النظر في قصر حياتي الغارقة في امتداد الأزل ، وحينما اتأمل في حيز جسمي المحدود الغارق في الأفضاء اللامتناهية ، في الأفضاء التي اجهلها وتجهلني ، أحس بالذعر والدهشة لرؤية نفسي هنا لا هنالك ، لأنه لا شيء يبرر وجودي هنا لا هناك ، اليوم لا آنذاك . من ذا الذي وضعني في هذا المجال ؟ بمشيئة مَن وتوجيه من خُصص لي هذا الزمان، وعُين لي هذا المكان؟

●

ان الصمت الدائم الذي تلزمه هذه الافضاء اللامتناهية يشيع في نفسي الرهبة .

●

كم من عوالم تجهلنا !

●

لِمَ انا محدود المعرفة ، محدود القامة ، محدود العمر؟ وماالسبب الذي دفعالطبيعة الى انتكسبنيهذهالصفات، وتهبني هذا العدد من السنوات ؟ ان الأعداد لا متناهية وليس هناك ما يدعو الى تفضيل احدها على الآخر .

●

مهما تكن الملهاة جميلة الأجزاء ، فان الفصل الاخير غارق في الدماء .

●

الموت المفاجىء وحده مدعاة للخشية . لذلك يبقى الكاهن المرشد لدى العظماء .

●

ما الذي يدعوهم الى القول بأننا غير مبعوثين ؟ أيهما أشق : الولادة ام البعث ؟ الوجود بعد العدم ام الوجود بعد الوجود ؟ ان العادة تجعل احدهما يسيراً ، ونقص العادة يجعل الآخر مستحيلاً . يا لها من محاكمة مبتذلة !

●

الرمان

ان النفس حائلة في الجسد ، وفيه تلقى الأبعاد والزمن والعدد . وهي تعقل ظواهر الامور وتسمي ذلك ماهية ، ضرورة ، ولا يسعها ان تؤمن بشيء آخر .

اذا اضيف العدد الواحد الى اللانهاية لم يزدها شيئاً ، شأنه في ذلك شأن وحدة الطول القياسية بالنسبة الى المدى اللامتناهي ، فالمحدود يتلاشى امام اللانهاية ويصبح عدماً محضا . هذه هي حال فكرنا امام الذات الالهية ، وعدالتنا امام العدالة الربانية . ان الاختلاف بين عدالتنا وعدالته كالاختلاف بين العدد الواحد واللانهاية .

ان عدالة الله واسعة كرحمته . فيجب ان نتقبل العدل ازاء الملعونين اكثر من الرحمة إزاء المصطفين

المختارين .

نحنَ نعرف ان هناك لا نهاية ، لكننا نجهل ماهيتها . كما نعلم ان الأعداد غير محـدودة ، لذلك ثمة لا نهايـة عددية . غير اننا لا ندري ما هي : فهي ليست بالعدد الشَفع ولا بالعدد الوِتر ، لان ماهيتها لا تتبدل ابداً اذا ما أضيف اليها العدد الواحد . الا انها عدد ، وكل عدد شفع او وتر (صحيح ان ذلك ينطبق على كل عدد محـدود) . وعليه ، يمكننا ان نعرف بان هناك الهاً دون ان نعرف ما هو .

ألا توجد أبداً حقيقة جـوهرية ، لأننا نرى أشياء كثيرة ليست ابداً الحقيقة بذاتها ؟

اننا نعرف اذن وجود المحدود وماهيته ، لأننا مثله محدودون ممتدون .

ونعرف وجود اللانهاية ونجهل ماهيتها ، لان لهـا امتداداً مثلنا ، وليست محدودة مثلنا .

بيد اننا لا نعرف وجود الله ولا نعلم ماهيته ، لأنه بلا امتداد ولا حدود .

ولكننا نعرف وجوده بالايمان . وقـد بينت اننا

تستطيع معرفة وجود شيء دون معرفة ماهيته .

●

اذا كان هناك إله فان العقول لا تدركه اطلاقاً لأنه بلا اعضاء ولا حدود. انه لا يملك اي علاقة تجانس معنا. نحن اذن عاجزون عن ان نعرف ما هو ، وهل هو موجود . فمن يجرؤ اذن على الشروع بحل هذه المسألة ؟ اننا لا نجرؤ ، لأننا لا نملك أي علاقة تجانس معه .

من ذا الذي ينحي باللائمة على المسيحيين لانهم لا يستطيعون اقامة الدليل على معتقدهم ؟

انهم يعلنون امام الملأ انها حماقة ! ثم تجهرون بالشكوى لانهم لا يثبتونه . لو فعلوا ذلك لما برّوا بكلامهم .

إن عجزهم عن تقديم الحجج يجعلهم منطقيين مع انفسهم .

— صحيح ، ولكن هذا الأمر لا يعذر من يتقبل المعتقد .

— فلننظر الى هذه النقطة بعين الفحص . ولنقل :

« الله موجود او غير موجود » . ولكن الى أي اتجـاه نميل ؟ ان العقل لا يستطيع ان يميّن شيئاً . هنــاك احتمالان في نهاية هذا الشوط اللامتناهي. فعلام تراهن ؟ بالعقل لا تستطيع ان تفعل لا هذا ولا ذاك . بالعقل لا تستطيع ان تدافع عن اي من الاثنين.

لا تلم اذن من اصطفوا لانك لا تعلم عن الأمر شيئاً .

— كلا . انني لا ألومهم لأنهم قاموا بهذا الاصطفاء ، بل لأنهم قـــاموا باصطفاء . الصحيح هو ان لا نراهن اطلاقاً .

— أجل . ولكن لا بد من الرهان . ليس الأمر رهناً بارادتنا . انك مضطر ، فأيها تختار ؟ بما انه لا مفر من الاختيار فيجب ان نرى مـا هو اقل استرعاء لاهتمامك . وان عقلنا لا يتأثر بأي من الاصطفاءين لأنه لا بد من الاصطفاء .

لقد انتهينا من هذه النقطة .

ولنوازن بين الربح والخسارة اذا قلنا بوجود الله .

هناك حالتان : اذا ربحت فزت بكل شيء . واذا خسرت فانك لا تخسر شيئاً .

راهن اذن على وجوده دون تردد .

- هذا رائع . حقاً يجب ان اراهن . ولكن لعلني أغامر بالكثير .

- بما ان احتمال الخسران كاحتمال الربح فمن الغفلة ان لا تغامر بحياتك لتفوز بالأبدية وتحظى بالسعادة .

حيثما توجد اللانهايـــة فيجب ان نهب كل شيء اذا كانت احتمالات الخسران محدودة .

لا طائل من القول ان الربح غير مؤكد وأن المغامرة مؤكدة . كل مراهن يغامر عن يقين ليربح دون يقين . إلا انه يغامر حقاً بالمحدود لينال ما هو محدود ، بشكل غير مؤكد؛ وذلك دون ان يخطىء بحق العقل. وعليه، ان عرضنا قوي راسخ الاركان . اننا نغامر بالمحدود في رهان تتكافأ فيه احتمالات الربح والخسران ، لنفوز بالأبدية . ان لهذا الأمر دلالته .

- اعترف بذلك . لكن الا توجد وسيلة لرؤيـــة خوافي الأمور .

- بلى ، الكتب المقدسة وغيرها .

- ولكني مقيد اليدين مغلق الفم . انني مجـبر على الرهان ولا اتمتع بالحرية. ثم انني مخلوق بحيث لا يسعني الايمان ، ماذا تود اذن ان افعل ؟

– قولك صحيح . لكن إعرف على الأقل عجزك عن الايمان . وحاول ان لا تقنع نفسك بالحجج ، بل بانقاص أهوائك . انك تود لو تمضي الى الايمان ولكنك لا تعرف طريقه . تريد ان تبرأ من الكفر ، وتطلب البلسم الشافي منه . استفد اذن من غيرك ، ممن شفوا من هذا الداء . اتبع الطريقة التي ابتدأوا بها ، طريقة التصرف كما لو كانوا مؤمنين ، وتناول الماء المقدس ، وإقامة القداس ، الخ ...

ختام هذه المقالة : ما ضرّك لو اتبعت هذه الطريق ؟ انك ستصبح مؤمناً شريفاً ، متواضعاً شكوراً ، كريماً صدوقاً . صحيح انك ستفقد اللذات الآثمة ، لكن الا يوجد سواها ؟ انك ستكون رابحاً في هذه الحياة . فكلما خطوت خطوة في هذه الطريق تأكدت من الفوز وتبدت لك تفاهة ما تغامر به ، لدرجة انك ستدرك في نهاية المطاف انك اصطفيت شيئاً مؤكداً لامتناهياً مقابل لا شيء .

– ان هذا الكلام يجد سبيله الى لبي ويأخذ بمجامع قلبي .

– اذا اعجبك هذا الكلام وبدا لك قوي الأثر فاعلم

انه من صنع شخص خر على ركبتيه ليتوجه بصلواته من أجلك الى الله العزيز القدير .

العقل والقلب

لا نعرف الحقيقة عن طريق العقل فحسب ، بل ايضاً عن طريق القلب . وبهذه الطريقة الثانية ندرك المبادىء الاولى التي عبثاً تحاول المحاكمة العقلية محاربتها. ان البيرونيين المتشككين الذين لا يستهدفون سوى ذلك يبذلون جهودهم بلا طائل . اننا على يقين من اننا غير حالمين . ومهما نكن عاجزين عن اثبات ذلك عن طريق العقل ، فان هذا العجز لا يدل الا على ضعف عقلنا لا على عدم رسوخ معارفنا كما يزعمون ، لأن معرفة المبادىء الاولى ، كوجود المكان والزمان والحركة والعدد ، راسخة رسوخ اي من المعارف التي نحصل عليها عن طريق المحاكمة العقلية . ينبغي للعقل ان يستند الى معارف القلب والغريزة . (فالقلب يشعر بأن هناك ثلاثة ابعاد في المكان ، وان الاعداد لامتناهية . والعقل يبرهن بعدئذ على انه لا يوجد ابداً عددان مربعان احدهما ضعفا الآخر . ان المبادىء تبلغ بالشعور ،

والقضايا بالاستنتاج . وفي كلتا الحالتين نحصل على معرفة يقينية ، ولكن بطرق مختلفة) . انـــه لأمر مضحك وغير مُجد ان يطلب العقل الى القلب اثباتات على مبادئه الاولى ليوافق عليها ، ومن المضحك ايضاً ان يطالب القلب العقل بأن يحس بكل القضايا التي يثبتها ليتقبلها .

فما على هذا العجز اذن الا ان يفيد في اذلال العقـل الذي يود ان يحكم على كل شيء كما لو كان منفرداً باطلاعنا . بل حبذا لو كنا في غنى عنه ، ولو كنا نعرف الاشياء كلها عن طريق القلب والغريزة ! ولكن الطبيعة ضنت علينا بهذه النعمة . انها لم تَحْبُنا الا القليـل من امثال هذه المعارف . اما المعارف الاخرى فلا تكسب الا عن طريق المحاكمة العقلية .

لذلك ، يعيش كل أولئك الذين هداهم الله الى الايمان عن طريق الشعور القلبي ، في غمرة من السعادة ، مقتنعين بصورة مشروعة . اما من حُرموا هذه النعمة فلا يمكن ان نغرس فيهم الايمان الا عن طريق المحاكمة ، ريثما يمن الله عليهم بالايمان عن طريق الشعور القلبي ، وبغيره لا يكون الايمان الا ذا صفة انسانية وغير مفيد للخلاص .

●

القلب هو الذي يحس بالله ، لا العقل .

●

للقلب مبررات لا يعرفها العقل .

القوانين والعدالة

... علام سيُرسي نظام حكمه في العالم ؟ أعلى نزوة كل فرد ؟ يا لها من فوضى ! أم على العدالة ؟ ولكنه لا يعرفها .

لا شك انه لو كان يعرفها لما أقام هذا المبدأ الانساني العام القائل بأنّ على كل فرد ان يتبع عادات بلاده ، ولخضعت جميع الشعوب للعدالة الحقة ، ولما اقتدى المشرعون بنزوات الفرس والألمان عوضاً عن الاقتداء بهذه العدالة الثابتة الدائمة وحينئذ كنا نراها سائدة في كل دول العالم وفي كل الأزمنة محل العدل او الظلم الذي يتبدل طابعه بتبدل الأقطار . ان احتهاد الحاكم ينقلب لأدنى تحـول في الارتفاع القطبي ، كما ان مصير الحقيقة يتقرر استناداً الى أدنى تحـول في خطوط الطول. واذا انقضت على الحيازة سنوات محدودة تبدلت القوانين الأساسية . ان للقانون تواريخه ، ودخـول زُحـل برج

الأسد يدلنا على اصل هذه الجريمة او تلك . فيا لها من عدالة مضحكة يحدها مجرى نهر! ما هو حق قبل جبال البيرينيه باطل فيا وراءها .

انهم يقولون ان العدالة ليست في هذه العادات ، بل تكمن في القوانين الطبيعية المعروفة في كل قطر . لا جرم انهم كانوا يؤكدون ذلك بعناد لو ان الصدفة التي بَذرت القوانين البشرية وقعت على قانون واحد على الأقل يتصف بالشمول . ولكن السخرية شاءت ان تكون اهواء البشر من التنوع بحيث استحال وجود مثل هذا القانون .

ان الاختلاس والزنا وقتل الابناء والآباء قيض لها جميعاً ان تُعتبر من الأفعال الحميدة . اي شيء اعجب من ان يتمتع احدهم بحق هدر دمي لا لشيء الا لأنه يقطن في الطرف الآخر من الحدود ، ولأن حاكم بلاده على خصام مع حاكم بلادي ، هذا مع العلم بأنني لست على خلاف مع هذا الشخص .

هناك ولا شك قوانين طبيعية ، ولكن هذا العقل الكيِّس الفاسد قد افسد كل شيء .

ونشأ عن هذه البلبلة ان الاول يجعل جوهر العدالة

في سلطان المشرع ، وآخر في مصلحة الحاكم ، وغيره في العرف الحالي . وهذا هو اضمن شيء ، فبحسب العقل وحده ، لا شيء عدل في ذاته . كل شيء يتزعزع مع مر الزمن . ان العرف يخلق العدالة لا لشيء الا لأنه مقبول . وهذا هو الأساس الغيبي لسلطانه . من يُرجعه الى مبدئه يهدمه . لا شيء أبعد عن الصواب من هذه القوانين التي تُقوم الاخطار . من يطعها لأنها عادلة يطع العدالة التي ترسمها مخيلته لا روح القانون . انها مجرد قانون ولا شيء اكثر من ذلك . من يود ان يفحص الدافع اليه يجده من الوهن والخفة بحيث انه اذا لم يكن معتاداً على تأمل غرائب المخيلة البشرية فانه يعجب أشد العجب لان هذا القانون كان محط الاحترام والاجلال في احد الأجيال . ان فن مهاجمة الدول وتهديمها قائم على زعزعة العادات الراسخة والرجوع الى منشئها للغمز في سلطانها وعدالتها . ويقال بأنه يجب الرجوع الى القوانين الأساسية والاولية للدولة ، وهي قوانين ذهبت بها عادة ظالمة مجحفة . انها طريقة مضمونة لفقدان كل شيء . فلا شيء عادل اذا ما وُزن بهذا الميزان . بيد ان الشعب يلقي أذناً صاغية لأمثال

هذه الأقوال ؛ لذلك قال احد المشرعين الحكماء : إن مصلحة البشر تقتضي مخادعتهم في اغلب الأحيان . يجب ان لا يشعروا بحقيقة الاغتصاب . فقد أدخل فيما مضى بغير سبب ولكنه اصبح معقولاً . يجب ان نصوره كشيء شرعي صحيح دائم وان نخفي بدايته اذا اردنا ان لا ينتهي في القريب العاجل .

●

حينما تكون المسألة مسألة إعلان حرب وقتل الألوف المؤلفة من البشر ، فان شخصاً واحداً فقط هو الذي يقدر الأمر ، مع العلم بأنه ذو غرض .

في مثل هذه الأمور يجب الركون الى شخص لا علاقة له بالموضوع .

كُنه الأنا

ما الأنا ؟

اذا وقف شخص عند النافذة ليرى المارة ، واذا مررت انا من هناك فهل استطيع ان اقول انه وقف ليراني ؟ كلا . لأنه لا يفكر فيّ بالذات . ومن يحب شخصاً لجماله فهل يحبه حقاً ؟ كلا . لأن الجدري

الذي يقضي على الحسن دون ان نقتـل الشخص يُنهي هذا الحب .

واذا كنتُ محبوباً لما اتمتع به من حُكم وذاكرة فهل أنا محط هذا الحب ؟ كلا . فبوسعي ان افقد هذه الصفات دون ان افقد ذاتي . اين هي اذن هذه الأنا اذا لم تكن لا في الجسد ولا في النفس؟ وكيف يُحب الجسد او تُحب النفس ان لم يكن من اجل هذه الصفات التي لا تصنع الأنا اطلاقاً ، لأنها صفات فانية ؟ فهـل يُحَب جوهر نفس الانسان بصورة تجريدية مهما تكن صفاته ؟ هذا الامر غير ممكن ومخالف للعدل. اننا اذن لا نحب احداً ابداً ، بل نحب بعض الصفات ليس غير .

الفكر

ما الانسان الا عود قصب، اضعف عود في الطبيعة، ولكنه عود مفكر . ليس من داع لأن يتقلد العالم كله السلاح لتحطيمه : فذرة من البخار او نقطة من المـاء تكفي لقتله . ولكن ، حتى حينما يحطمه العـالم يبقى الانسان انبل من قاتله ، لأنه يعرف ان يموت . اما العالم فلا يعلم شيئاً عما يتمتع به من تفوق على الانسان .

كل كرامتنا اذن في الفكر. فلنسع الى ان نفكر جيداً: هذا هو مبدأ الاخلاق .

●

يجب ان لا ابحث عن الكرامة الا في تنظيم فكري. فبالفكر افهم العالم وأتحرر من إساره .

●

استطيع ان اتصور الانسان بلا يدين ولا قدمين ولا رأس . لكنني لا استطيع ان اتصوره بغير فكر . فلولا الفكر لأصبح مجرد حجرة او بهيمة ..

●

عظمة الانسان بالفكر .

متفرقات

لو رأينا في منامنا كل ليلة نفس الرؤيا لأثرت فينا بقدر الأشياء التي نراها في صحونا كل يوم .

ولو رأينا في منامنا كل ليلة اننا مطاردون بالأعداء لتألمنا تقريباً كما لو كان الأمر حقيقياً .

ولكن ، نظراً الى ان الرؤى مختلفة جميعاً وان نفس الرؤيا تتنوع وتأخذ اشكالاً متباينة ، لذلك نتأثر بها اقل مما نتأثر بما نرى في حال اليقظة التي تتصف بشيء

من الاستمرار .

واحيانا نسمع من يقول : يُخيل إلي انني احلم .

ذلك ان الحياة حلم، ولكنه اكثر ثباتاً واقل تقلباً.

●

احبُ الفقر لأنه[1] أَحبَّ الفقر واحبُ المال لأنه يهيء الوسيلة لمساعدة المساكين .

وأبقى وفياً للجميع فلا أقابل الأذى بالأذى ، بل اتمنى للأشرار وضعاً كوضعي .

واحاول ان أكون عادلاً مخلصاً صادقاً وفياً مع الجميع ، ولكن قلبي ميال الى من قرّبهم الله من نفسي .

وسواء أكنت وحيداً فريدا ام مع الناس ، فانني انصرف باعمالي الى الله . فهو الذي سيرى أفعالي وهي وقف له .

تلك هي مشاعري وإنني لأتوجه بالحمد الى المسيح المخلّص . فهو الذي انعم عليّ بها وجعلها في نفسي. فاصبحت بنعمته ورحمته بريئاً من الآثام ، بعد ما كنت غارقاً في الضعف والشقاء ، في الشهوة والاهواء ، في

---

(١) يسوع

الطمع والكبرياء .

●

لست ضالة أحد . والظلم كل الظلم في ان يحيطني الناس بمشاعر المحبة ، ولو عن طوع ورغبة .

يجب ان ينصرف المرء طيلة حياته، لطلب الله تعالى ومرضاته .

●

يجب ان لا نحب الا الله وان لا نكره الا ذاتنا .

●

على كل عضو ان يرضى بالفناء في سبيل الجسم الذي من اجله وحده ُوجد كل شيء .

في الديانة المسيحية

انهم يكفرون بما لا يعلمون . فالديانة المسيحية تقوم على نقطتين يجـــدر بالبشر معرفتهما ومن الخطر ان يجهلوهما . وشاءت رحمة الله ان يعطينا دليلاً على الاثنتين. ولكنهم وجدوا ما يدفعهم الى القول بأن الواحدة لا تستدعي الاخرى . فالحكماء الذين قالوا لا إله إلا الله تعرضوا للاضطهـاد ، واستحق اليهود البغضاء ولاقى

المسيحيون اكثر من ذلك . فقد رأوا انه اذا كانت هناك ديانة صحيحة على الارض فينبغي لجميـــع الأشياء في سيرها ان تتجه اليها اتجاهها الى النقطة المركزية .

يجب ان يكون هدف الاشياء في سيرها توطيـــد اركان الدين . وعلى البشر ان يتحلوا في ذاتهـم بمشاعر مطابقة لتعاليمه . ويجب ان يكون الدين هدف كل شيء ومركزه بحيث يتمكن من يعرف مبادئه من تفسير طبيعة الانسان بوجه خاص وسير العالم بوجه عام .

وعلى هذا الاساس يهـاجمون الدين المسيحي لأن معرفتهم به رديئة ، فهم يتصورون انه يقوم فقط على عبادة إله كبير عظيم خالد. وهذا هو في الحقيقة مذهب المؤلهـة الذين يؤمنون بوجود وحي déisme ويـــكاد يكون بعيداً عن الديانة المسيحية بُعد الإلحاد المخالف لها تمام المخالفة ويخلصون من ذلك الى ان هذه الديانـة غير صحيحة لانهم لا يرون ان كل شيء يُسهم في توطيد هذه الناحية، ولأن الله لا يتجلى للبشر بكل ما يستطيع من وضوح .

فليستخلصوا من ذلك ما يحبون ضد مذهب المؤلهة المذكور ، ولكنهم لن يستخلصوا منه شيئاً ضد الدين

المسيحي الذي يقوم على لغز المخلّص الذي جمع الذاتين البشرية والإلهية فانتشل البشر من دنس الخطيئة ورجس المعصية ليعيدهم الى الله في شخصه الإلهي .

ان الدين المسيحي يعلم البشر هاتين الحقيقتين : الله موجود والبشر قادرون على التقرب منه ، والفساد موجود في الطبيعة وهذا مايجعلهم غير جديرين بالتقرب. فيجدر بالبشر ان يعرفوا هاتين الحقيقتين . ومن الخطر على الإنسان ان يعرف الله دون ان يعرف ما به من شقاء ، وان يعرف شقاءه دون ان يعرف المخلّص الذي يستطيع انقاذه من هذا الشقاء . ان الإلمام باحدى هاتين الحقيقتين فقط يؤدي الى شموخ الفلاسفة الذين عرفوا الله ولم يعرفوا شقاءهم ، او الى قنوط الملحدين الذين يعرفون شقاءهم ولا يعرفون المخلّص .

فلنفحص نظام العالم ولنرَ ألا تميل الاشياء جميعها الى اثبات هاتين النقطتين في هذه الديانة : ان يسوع المسيح هدف كل شيء ، والمركز الذي يتجه اليه كل شيء . من عرفه فقد عرف سبب الاشياء جميعاً .

الذين يضلون السبيل لا يضلون الا لعدم التبصر في احد هذين الشيئين . يمكننا اذن ان نعرف الله دون ان

نعرف شقاءنا ، وان نعرف شقاءنا دون ان نعرف الله . ولكن لا يسعنا ان نعرف يسوع المسيح دون ان نعرف الله وشقاءنا معاً .

لذلك لن احاول ان اثبت هنا بالعلل الطّبيعية امـا « وجود الله » او « الثـالوث الاقدس » او « خلود النفس » ولا اي شيء من هذا النوع ؛ لا لأني لا آنس في نفسي القوة الكافية لكي اجد في الطبيعة ما يقنع الملحدين المتصلبين فحسب ، بل ايضاً لأن هذه المعرفـة عقيمة وغير مجدية بلا يسوع المسيح . فحينما يقتنع الانسان بأن نسب الأعداد حقائق غير مادية ، خالدة ، ومتعلقة بحقيقة اولى اسمهـا الله ، لا اظن انه يخطو كثيراً الى الامام في طريق الخلاص . مـا إله المسيحيين مجرد إله يصنع الحقائق الهندسية ونظام العناصر ، فهذا شأن الوثنيين والأبيقوريين . ولا مجرد إله يشمل بعنايته حياة الناس وأموالهم ، فهـذا شأن اليهود . إن إله ابراهيم واسحق ويعقوب ، ان إله المسيحيين ، إله محبة وسلوى . انه إله يملأ قلب المؤمن المدرك ؛ ويجعله يحس ضمنياً بمـا به من شقاء ، ويشعر برحمة الله الواسعة ؛ ويملأ نفسه بالخشوع والبهجة ، بالثقة والمحبة ؛ ويجعله لا يستهدف إلا ذاتـه

العلية .

الذين ينشدون الله خارج يسوع المسيح ويتأملون ما في الطبيعة ، لا يرون اي نور يشفي غليلهم او يبلغون وسيلة لمعرفة الرب وعبادته بغير وسيط ، وبذلك ينتهون الى الالحاد او الى مذهب المؤلهة الذين لا يؤمنون بوجود وحي . وهما امران يمقتهما الدين المسيحي على حد سواء تقريباً .

لولا المسيح ما استمر العالم ، ولكان مصيره الدمار او لأصبح كالجحيم .

لا يستشف المرء في هذا العالم نفياً تاماً للألوهية ولا اثباتاً صريحاً لوجودها ، بل تتراءى له الأدلة على وجود إله محتجب . كل شيء يحمل هذا الطابع .

ليس على المرء ان لا يرى اي شيء اطلاقاً ، ولكن ليس عليه ايضاً ان يبلغ من المعرفة مبلغاً يدفعه الى الاعتقاد انه فهم الله ، بل ينبغي له ان يبلغ من الرؤية حداً يجعله يدرك انه فقده .

وينبغي له ، في سبيل ذلك ، ان يرى ... وان لا يرى

●

حينما ارى ما بالانسان من عماء وشقاء ، واتطلع في الدنيا الخرساء البكماء ، وفي الانسان متروكاً لذاته بلا اضواء ، أشبه ما يكون بالتائه الضائع ، لا يعرف مَن وَضعه في هذه الزاوية من العالم، ولا يدري ما هو فاعل فيها ، ومـا سيحل بعد الوفـاة ، عاجزاً كل العجز عن المعرفة ... حينما أرى ذلك كله يستبد بي الفزع الاكبر والهـول الاعظم كإنسان نُقل وهو غارق في النوم الى جزيرة رهيبة مقفرة ثم أفاق دون ان يعرف اين مُقامه وليست لديه اي وسيلة للخروج .

اني لأعجب كيف لا تكون نفس المرء يائسة من هذه الحال البائسة !

وألمح اشخاصاً آخرين بالقرب مني طينتهم من طينتي فأسألهم هل هم أحسن اطلاعاً فيجيبونني بالنفي .

ولكن هؤلاء التائهين البائسين رأوا مـا حولهم من الأشياء الممتعة فاقبلوا عليها وتعلقوا بها . امـا انا فلم أفعل ، وتأملت كم هناك من احتمال لوجود ما هو اكثر مما تقع عليه العين، وفتشت هل خلّف هذا الإله ما يدل على ذاته .

اني ارى ديانات مخالفة ، وبالتالي باطلة جميعاً مـا

عدا واحدة . كل واحدة منها تبغي ان يؤمن الناس بها نزولاً عند سلطانهـــا مرسلة الوعيد للمنكرين ، مطلقة التهديد للجاحدين . لذلك لا أومن بها . كل فرد يستطيـع ان يرسل مثل هــذه الأقوال ، كل فرد يستطيـع ان يدعي النبوة . ولكنني ارى النبوءات في الدين المسيحي وهذا ما لا يقوى عليه احد .

العباقرة والقديسون

لكبار العباقرة سلطانهم وجـــلالهـم ، عظمتهم ورفعتهم . وهم بغنى عن المراتب المادية السنية . يُرَون بالأذهان لا بالعيان ، وهذا يكفي .

وللقديسين سلطانهم وجلالهم ، عظمتهم ورفعتهم . وهم بغنى عن المراتب السنية المادية منها او الفكرية . يراهم الله والملائكة ، لا الأذهان المتطفلة والاجسام المتشوفة . وحسبهم الله .

ان أرخميدس بلا جلال ، يبقى محط الإجلال ، لأنه قدم اختراعاته للفكر ، فعلا اسمه وسطع نجمه .

والمسيح بـــلا مـــال ، ولا انتاج ، سما الى مراتب لقداسة . لم يأت قط باختراع ولم يتقلد المـُلك ، بل كان

متواضعاً حليما وطاهراً قديسا ، شديداً على الأبالسة ، منزّهاً عن المعصية. فتأملتُ رفيعَ جاهه وعجيب عزته عيونُ القلب التي ترى الحكمة .

لقد كان أرخميدس أميراً ، ولكنه ما كان ليحتاج ان يظهر بمظهر الامير في كتبه الهندسية .

وتألق يسوع بسنا مراتبه العلية، ولكنه ما كان ليحتاج ان يظهر بمظهر الملك ليتألق في سلطان قداسته.

لمـــاذا التأسي لضَعَة المسيح ! ان عظمته تتجلى في حياته وعذابه وموته وبعثه الخفي .

ولكن هناك من لا يستطيع ان يتأمل الا المراتب المادية كما لو لم يكن هناك ما هو اعلى منهـــا في مراتب الحكمة .

وهناك من لا يتـأمل الا المراتب الفكرية ، كما لو لم يكن هناك ما هو أعلى منها في مراتب الحكمة .

ان كل الاجسام والفلك والنجوم والارض والممالـك لا تساوي أبسط الافكار لان الفكر يعرف كل ذلك ويعرف ذاته اما الجسم فلا يعلم شيئاً . .

ان كل الاجسام وكل الافكار وكل ما يصدر عنها من انتاج ، لا تساوي ادنى بادرة من بوادر المحبة . فهـذه

من درجة اعلى ومرتبة أسمى .

من كل الاجسام لا تُستخرج فكرة صغيرة ، فذلك مستحيل ومن مرتبة اخرى. ومن كل الاجسام والاذهان لا تُستخرج بادرة واحـــدة من بوادر المحبة الحقيقية ، فذلك مستحيل ومن مرتبة أخرى ، من مرتبة خارقة .

دعاء المرضى

١ – اللهم يا من وسع حلمك وبرّك كل شيء، وتعاظمت رحمتك حتى شملت عبادك المصطفين في السراء والضراء. تلطف علي بأن لا يكون تصرفي كتصرف الجاهل وأنا في هذه الحال التي ارادتها عدالتك. ولتكن مشيئتك ان اتمثل فيك ككل مسيحي حقيقي الرب والآب ، مهما يكن حالي ، لأنّ تغيّر وضعي لا يبـدل من وضعك ، ولأنك إله حينا تُنزل العقاب والاحزان ، وحينا ترسل السلوى والغفران .

٢ – لقد وهبتني الصحة لأعبدك فتهالكت على نعيم الدنيا . وها انت ذا تنزل بي المرض لتؤدبني . فلتكن مشيئتك ان لا اسخطك بجزعي . لقد اسأتُ استعمال صحتي فجازيتني بحق . فلتكن مشيئتك ان لا اسيء

استعمال عقابك . ان فساد طبيعتي بلغ مبلغاً صير نعمك مؤذية لي ، فلتكن مشيئتك اللهم ، ان يجعل حلمك الواسع هذا العقاب وسيلة لخلاصي. انْ كان قلبي مترعاً بحب الدنيا ايام بأسه ، فاقض على هذه القوة في سبيل خلاصي ، واجعلني عاجزاً عن التنعم بمباهج الدنيا لضعف الجسم او لفرط المحبة ، كي لا تكون مسرتي الا بك وحدك .

٣ – اللهم يا من سأقدم امامه الحساب عن افعالي في ختام حياتي ونهاية العالم !

اللهم يا من لا يدع العالم وما فيه الا ليختبر عباده الصالحين وليجازي الآثمين !

اللهم يا من يُمهل المذنبين ليستسلموا لمتع الدنيا الآثمة !

اللهم يا من يفصل روحنا في ساعة الموت عن كل ما كانت تحبه في هذا العالم !

اللهم يا من ينتزعني في اللحظة الاخيرة من حياتي عن كل ما شغف قلبي !

اللهم يا من سيهلك الارض والسماء وما عليهما ليبقى وجهك ذو الجلال والاكرام . انك انت الجدير بالمحبة لأنك منفرد بالبقاء .

أحمدك اللهم واشكرك طيلة حياتي لانك جنبتني عذاب يوم عظيم بما كتبتَ علي مَن وهن مقيم .

أحمدك يا ربي وأشكرك طيلة حياتي لانك جعلتني عاجزاً عن التمتع بمباهج الصحة واللذة في هذا العالم .

وكما انني سأكون ساعة مماتي منعزلاً عن العالم محروماً مِن الاشياء كلها منفرداً بحضرتك لأجيب عن كل خفقات قلبي ، كذلك فلتكن مشيئتك ان اعتبر نفسي في هـذا المرض كميت منعزل عن العالم منفرد بحضرتك لأسألك توبة قلبي يا أرحم الراحمين .

في الحب والجمال

ان الجمال مقسم بألف طريقة والمرأة خير ما يجسده . فحينما تتمتع بالفطنة تبث فيه الحيـــاة وتظهره بأروع شكل .

واذا ارادت ان تثير مشاعر الاعجاب ، وكانت تملك مزايا الجمال او على الاقل قسطاً منه ، فانها تنجح أيمـا نجاح وتنسل الى افئدة الرجال .

وُلد الانسان للذة . وهو يحس بذلك بشعوره ولا يحتاج الى دليل آخر . انه يتبع نداء العقل اذ يُقبل على اللذة .

ولكنه غالباً ما يحس بلواعج الحب في قلبه دون ان يعلم متى كان مبتداه .

وسواء أكانت اللذة صحيحة ام كاذبة فانها تملأ الفكر . فما ضرّنا انها كاذبة ما دمنا مقتنعين بصحتها ؟

لكثرة ما نتحدث عن الحب نقع في شباكه . لا شيء أسهل من ذلك ، لأن الحب اقرب الأهواء الى طبيعة الانسان .

ليس للحب عمر . فهو دائماً في طور النشوء . وقد قال لنا الشعراء ذلك ومثلوا لنا الحب كالطفل . ولكننا نشعر بذلك دونما حاجة الى سؤالهم .

ان الحب يُكسب الفطنة ويدوم بفضلها وعلينا ان نتمتع بالمهارة كي نحب . واننا لنستنزف كل يوم سُبل الاعجاب .

لدينا ينبوع من حب الذات يصور لنا اننا قادرون على احتلال العديد من الامكنة . وهذا ما يولد سرورنا لأن نكون محطاً للحب . وبما اننا نتمناه بلهفة ، لذلك سرعان ما نتبينه في عين المحب . فالعين ترجمان القلب ولا يفهم لغتها الا صاحب العلاقة .

ان الانسان مخلوق ناقص ولا تتم سعادته الا بمخلوق

ثاني . وغالباً مـا يبحث عنه في تساوي الوضع تسهيلاً لحرية ظهوره . بيد اننا نروم احياناً مـــا هو اعلى ، ونحس بالنار تتعاظم مع عجزنا عن الافصاح عنها .

حينما نحب امرأة دون تساوٍ في الوضع ، فقد يرافق الطموح بداية الحب ، ولكن سرعان ما تكتسب الغلبة للأخير . انه طاغية مستبد لا يتحمل ابداً اي رفيق ، وينبغي للأهواء كلها ان تنقاد له وتذعن لأمره .

في فن الاقناع

ان فـن الاقناع مرتبط باستمداد الأشخاص وبوضع الأشياء .

لا احد يجهل ان النفس تتلقى الآراء عـن طريقين أساسين : الادراك والارادة . اما طريـــق الادراك فأقرب الى الطبيعة ، اذ ينبغي لنا ان لا نقر الا الحقائق الثابتة . واما طريق الارادة فأقرب الى مألوف العادة ، وان كان مخالفاً للطبيعة . لأن الناس جميعاً ميالون دائماً تقريباً الى التصديـق استناداً الى الرضى لا الى الحجة . وهذا الطريق وضيـع رديء دخيل، لذلك يذمه الجميع. كل فرد يتباهى بأنه لا يصدق بل ولا يحب الا ما هـو

أهل لذلك .

لست اتحدث هنا عن الحقائق الآلهية . فالله وحده قادر على ان يضعها في النفس بالصورة التي تحلو له . لقد اراد لها ان تدخـل من القلب الى الفكر ، لا من الفكر الى القلب ، ليُذل الحاكمة العقلية التي تزعم بانها هي التي تحـكم على الأشياء التي تصطفيها الارادة ، وليشفي هـذه الارادة السقيمة التي افسدت نفسها بتعلقاتها الفاحشة . لذلك ، نقول في معرض الكلام عـن الامور الانسانية بان على المرء ان يعرفها قبل ان يحبها ، وجرى هــذا مجرى المثل . اما القديسون فيقولون في معرض الحديث عن الأمور الالهية بان على المرء ان يحبها كي يعرفهـا ، واننا لا نبلغ الحقيقة الا عن طريق المحبة .

ان هذا الفن الذي اسميه فن الاقناع ليس في الحقيقة الا ادارة الحجج المنظمة الكاملة ، ويتكون من ثلاثة اقسام أساسية : تعريف العبارات المستعملة بتعاريف واضحة ، عرض مبادىء واضحة لإثبات الشيء ، الاستعاضة في البرهنة عن المعرّفات بالتعاريف بصورة ذهنية دائما .

ان سبب هذه الطريقة واضح. فغير مُجدٍ ان نعرض ما نود اثباته وان نشرع بالبرهنة عليه ، اذا لم نعمـد في

السابق الى تعريف كل العبارات غير المفهومة تعريفاً واضحاً ؛ وكذلك يجب ان تكون البرهنة مسبوقة بطلب المبادىء الواضحة ، لأننا لا نستطيع ضمان البناء اذا لم نضمن الاساس . ويجب اخيراً ان نستميض في البرهنة عن المعرّفات بالتعاريف بصورة ذهنية ، والا أسأنا استعمال المعاني المختلفة الموجودة في العبارات . ومن السهل علينا ان نرى ان التقيد بهذه الطريقة يسمح بالتأكد من الاقناع . فنظراً الى ان العبارات مفهومة كلها وخالية من الالتباس بفضل التعاريف ، وبما ان المبادىء مقبولة ، لذلك اذا استعضنا في البرهنة عن المعرّفات بالتعاريف بصورة ذهنية دائماً فان النتائج تعطي كل مفعولها . ان الشك لا يتطرق ابداً الى البرهنة التي تراعي فيها هذه الأحوال . ولا قوة ابداً للبرهنة التي لا تتوفر فيها هذه الاحوال .

ان فهمها وتملكها امر على جانب من الاهمية . وتسهيلاً للأمر وتقريباً له ، سأعطيها جميعاً في هذه القواعد القليلة التي تشتمل على كل ما هو ضروري لكمال التعاريف والمبادىء والبرهنات ، وبالتالي لكمال الطريقة التامة للحجج الهندسية في فن الاقناع .

قواعد للتعاريف: ١ - يجب ان لا نقدم على تعريف اي شيء من الأشياء المعروفة في حد ذاتها ، لدرجة انه لا توجد لدينا ابداً عبارات اوضح لتفسيرها ، ٢- يجب ان لا نترك اي عبارة من العبارات الغامضة او الملتبسة دون ان نعرفها ، ٣ - يجب ان لا نستعمل في تعريف العبارات الا كلمات معروفة بشكل تام او سبق تفسيرها.

قواعد للمبادىء : ١ - يجب ان لا نترك اي مبدأ من المبادىء اللازمة دون ان نتساءل هل نقبل بـه ، وذلك مهما يكن واضحاً وبديهياً، ٢- يجب ان لا نحول الى مبادىء الا الاشياء البديهية تماماً في حد ذاتها .

قواعد للبراهين : ١ - يجب ان لا نبرهـن على اي شيء من الاشياء البديهية في حد ذاتها ، لدرجة انـه لا يوجد لدينا ما هو اوضح منها لاثباتهـا ، ٢ - يجب اثبات كل القضايا الغامضة ، وان لا نستخدم في البرهنة عليها الا مبادىء بديهية او قضايا سبق قبولها او البرهنة عليها، ٣ - يجب ان نستبدل ذهنياً المعرّفات بالتعاريف، كي لا نخطىء بسبب التباس العبـارات التي ضيقتهـا التعاريف .

تلك هي القواعد التي تشتمل على كل تعـاليم الحجج

الراسخة الثابتة . ومن بينها ثلاث قواعد ليستضرورية بصورة مطلقة ، يمكن اهمالها دون التعرض الى خطأ ، بل ومن الصعب وشبه المستحيل التقيد بها تماما وان كان الكمال يقتضي تحقيق ذلك بقدر الامكان. وهي القواعد الثلاث الاولى في كل من الاقسام المبينة .

فيما يخص التعاريف : عدم تعريف اي عبـــارة من العبارات المعروفة تماماً .

فيما يخص المبادىء :عدم ترك اي مبدأ من المبادىء دون ان نتساءل هل نقبل به ، وذلك مهما يكن واضحاً وبديهياً .

فيما يخص البراهين : عدم البرهنـــة على اي شيء معروف جيداً في حد ذاته .

اما القواعـــد الخمس الاخرى فهي ذات ضرورة مطلقة ، ولا يمكن التخلي عنها دون التعرض للخطأ . وهي تشتمل على كل ما هو ضروري لجعل الحجج مقنعة ثابتة ، وهندسية . واما القداعد بمجموعها فتجعل الحجج أكثر كمالاً .

في التحفظات الذهنية

أود الآن ان احدثكم عن التسهيلات التي قدمناهـا

لكم لتجنب الآثام في معرض الكلام وفي مكايد المجتمع .
فأكثر ما يولد الارتباك في امثال هذه الأحوال تجنب
الكذب ولا سيما العمل على التمويه . وان مبدأ التورية
يسدي اروع الخدمات في سبيل ذلك ، وهو المبدأ الذي
ينص بحسب قول سانشيه على انه « يجوز استعمال الفاظ
مبهمة نعني بها غير ما في انفسنا » .

فأجبته : أعرف ذلك يا ابتي .

واستطرد : لقد نشرنا هذا المبدأ كثيراً حتى صار
الجميع يعرفونه . ولكن ، هل تعلم كيف يجب ان
يتصرف المرء حينما لا يجد كلمات مبهمة ؟

فقلت : كلا يا أبتي ، فقال : هذا ما كنت اقدر .
فالمبدأ جديد . انه مبدأ التحفظات الذهنية ، يقول
سانشيه عنه : « يمكننا ان نحلف بأننا لم نرتكب عملاً
وان كنا قد ارتكبناه فعلاً . وذلك باضمارنا في انفسنا
اننا لم نفعله « ذات يوم » ، او « قبل ولادتنا » ، او اي
شيء من هذا النوع ، دون ان تتضمن الكلمات التي
نستعمل اي معنى يُظهر فعلتنا . هذا الأمر مناسب
جداً في كثير من الأحوال ، وهو دائماً شديد الصواب
حينما يكون ضرورياً او مجدياً » .

فسألته متعجبــاً : الا يُعتبر هذا الأمر كذباً ، بل يميناً كاذبة يا ابتي ؟

فرد علي بقوله : كلا . ان سانشيه يبرهن على ذلك . وفيليتيوس ايضاً . وذلك – فيما يقول – لأن « القصد هو الذي يحدد نوعية العمل » . ويذكر ايضــــاً وسيلة اخرى أضمن لتجنب الكذب . فيبدأ الشخص بأن يقول بصوت مرتفع : **أقسم بأنني لم افعل ذلك قط** . ثم يضيف قائلاً بصوت منخفض : **هذا اليوم** . او انه يبدأ بأن يقول بصوت مرتفع : **أقسم** . ثم يضيف قــــائلاً بصوت منخفض : **بأنني أقول الحق** . ثم يتابع كلامــه بصوت مرتفع قائلاً : **بأنني لم افعل ذلك قط** .

هــأنتذا ترى انه يقول الحق . فقلت له : لا انكر ذلك . لكن، ربما كان هذا قول الحق بصوت منخفض ، والكذب بصوت مرتفع . بالاضافة الى انني اخشى ان لا يتمتع كثير من الناس بحضور الذهن الكافي للاستفادة من هذه الطرق . فقال لي : لقد بين آباؤنا ان العــاجزين عن استعمال هذه التحفظات ما عليهم لتجنب الكذب الا ان يقولوا « إنهم ما فعلوا قط » فِعْلتهم ، « بشرط ان يكون قصدهم بوجه عام ان يُكسبوا كلامهم مـــا

يُكسبه الرجل الحاذق من معنى » .

قُــــل الحق . لقد حدث لك كثيراً انك شعرت بالارتباك لأنك لم تكن تعرف ذلك . فقلت له : أجل . فاستطرد قائلاً : ألا تُقر ايضاً بـــأنه من المناسب في أغلب الأحيـــان ان نعفي وجداننا من البر بكلامنا . فقلت له : هذا اعظم تيسير يا ابتي . فقــال لي : اسمع اذن الى هذه القاعدة العـــامة التي اعطاها اسكوبار : « ان الوعود غير مُلزمة اطلاقاً حينما لا يكون قصدنا ان نلتزم باعطائها » . ولا يحصل لنــا ابداً ان يكون عندنا مثل هذا القصد الا اذا اكدنا الوعـــد بيمين او عقد . لذلك، حينما نقول فقط : « سأفعل ذلك » نعني اننــــا سنفعله اذا لم نبدل إرادتنــــا . فنحن لا نريد ان نحرم نفسنا من التمتع بحريتنا .

فقلت له : يا ابتي ! ما كنت لاعرف ان توجيـــه القصد له من القوة ما يجعل الوعود باطـــلة . فقال لي : أنك لترى جيداً ان ذلك تسهيل للتعامل على صعيـــد المجتمع . بيد اننا لقينا اشد الصعوبة في تنظيم المحادثات بين الرجال والنساء ، لأن آباءنا اكثر تحفظـاً فيما يخص المسائل المتعلقة بالعفة . ولا نخلص من ذلك الى انهم لا يتناولون

مسائل عجيبة ومتساعة جداً بصدد الاشخاص المتزوجين او المخطوبين . فقد تناهى الى علمي اعجب ما يمكن تصوره من مسائل ، مما يشكل مواضيع لعدة رسائل . ولكنني لا أود ان اشير الى اسانيدها لانك تعرض رسائلي على كل الاشخاص . ولا اريد ان تتاح مثل هذه القراءة لمن لا ينشدون في الرسائل الا المتعة والتسلية .

قصة جاك ديلبا

قلت له : يا ابتي ! هوذا المقطع المتعلق بجاك ديلبا . فقال : ماذا تعني ؟ فقلت : عجباً ! ألم تعد تتذكر ما حدث في هذه المدينة عام ١٦٤٦ ؟ اين كنت اذن آنذاك ؟ فقال : كنت أدرس مشاكل الذمة في أحد معاهدنا النائية عن باريس . فقلت له : يتبين لي اذن انك لا تعرف القصة ، فيجب ان اقصها عليك . ان احد الأفاضل رواها لي منذ ايام .

كان جاك ديلبا يعمل في خدمة الآباء في معهد كليرمون في شارع سان جاك . ولم يكن راضياً عن راتبه فاختلس بعض الأشياء على سبيل التعويض . وأحس الآباء بالأمر فزجوا جاك ديلبا في السجن بتهمة

ارتكاب سرقة منزلية . و رفعت الدعوى امام القضاء في السادس من نيسان ١٦٤٦ ، ان لم تخني الذاكرة ، لان الراوي اشار الى كل هذه التفاصيل ليصدقه المستمعون. وجرى استجواب هذا المنكود فاعترف بسرقة بعض الصحون . ولكنه زعم انه لم يسرقها ... واستشهد تبرئةً لنفسه بمبدأ الأب « بوني » ، وقدم للقضاة كتاباً وضعه احد الآباء وكان قد درّسه مشاكل الذمة . بناءً على ذلك اقترح « مونروج » ما يلي : « ان كتب هؤلاء الآباء المشتملة على مبدأ محرّم ، مخالف لجميع الشرائع الطبيعية والسماوية والانسانية ، كفيل بزعزعة اركان الأسر كلها والسماح بجميع السرقات المنزلية ، ... ان هذه الكتب لا تبرر العفو عن هذا المتهم » . ورأى ان هذا التلميذ المفرط في الطاعة والاخلاص يستحق الجلد أمام باب المعهد ، وينبغي للجلاد في الوقت نفسه ان يحرق كتب هؤلاء الآباء التي تبحث في السرقة ، ويُمنع هؤلاء من تدريس مثل هذا المبدأ تحت طائلة العقوبة...

●●

كان الناس بانتظار نتيجة هذا الاقتراح . وفجأة طرأ حادث أجل صدور الحكم. وفي هذه الاثناء اختفى

السجين بطريقة مجهولة ، وتوقف كل حديث عن هـــذه القضية ، بصورة ان جاك ديلبا خرج من سجنه ولم يُرجع الآنية .

هذا ما قال لنا الراوي واضاف ان اقتراح السيد « مونروج » موجود في سجلات القضـــاء ويمكن لكل فرد ان يطلع عليه . وقد استمتعنـــا بهذه القصة اشد الاستمتاع .

مصادر الكتاب

BIBLIOGRAPHIE

La bibliographie générale des œuvres de Blaise Pascal, par M. Alfred Mavie, arrêtée en 1927, comporte cinq volumes (Giraud-Badin).

Parmi les innombrables études consacrées à Pascal et à son œuvre, signalons :

Boutroux, Pascal (Hachette, 1900).

L. Brunschvicg, Le Génie de Pascal (Hachette, 1925).

L. Brunschvicg, Pascal (Rieder, 1932).

Victor Cousin, Etude sur Pascal (1842-1844).

Augustin Gazier, Port-Royal au XVIIe siècle (Hachette, 1909).

Giraud, La vie héroïque de Blaise Pascal (Crés, 1923).

Hatzfeld, Pascal (Alcan, 1901).

E. Jovy, Etudes pascaliennes (6 vol., Vrin 1927-

1928).
Lhermet, Pascal et la Bible (Vrin, 1931).
Nedelgovitch, La Pensée philosophique créatrice de Pascal (Alcan, 1925).
F. Rauh, La Philosophie de Pascal (Annales de la Faculté des Lettres de Bordeaux, 1892).
Ravaisson, La philosophie de Pascal (Revue des Deux-Mondes, 1887).
Sainte-Beuve, Port-Royal, t. III.
T. Strowski, Pascal et son temps (3 vol., Plon, 1907-1909).
Sully-Prudhomme, La Vraie religion selon Pascal (Alcan, 1901).

فهرست

الباب الاول

الباب الثاني

الباب الثالث

١٩٦٢/٢/٥٢

P-A-S-C-A-L

SA VIE
SON ŒUVRE
SA PHILOSOPHIE

EDITIONS OUEIDAT
BEYROUTH - PARIS

باسكال

زدني علماً

Bibliotheca Alexandrina
0351205

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth—Paris